نابليون على فراش الموت

تأليف

د. مصطفى الدّيواني

الكتاب: نابليون على فراش الموت

الكاتب: د. مصطفى الدّيواني

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الدّيواني ، مصطفى

نابليون على فراش الموت / د.مصطفى الدّيواني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٩٥ ص، ١٨ *٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٠١٨ – ٩٩١– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٩٥٩٣ / ٢٠٢٠

نابليون على فراش الموت

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إلى ولدي نبيه

بدء النهاية
حملة نابليون على روسيا

"لما آن للنجم أن يأفل، وللشعلة الدائمة أن تخبو، أضله الوحي أن يذهب إلى روسيا حيث الخير العميم والنعيم المقيم فلم يجد إلا البرد والموت والدمار.."

غادر الإمبراطور ميناء دانتزج في ١١ يونيو ١٨١٢ ووصل إلى كونجبرج في اليوم التالي وهناك أشرف على تجهيز المؤن والأغذية اللازمة لجيشه خلال زحفه على روسيا الواسعة الأرجاء وكان يهتم بأدق التفاصيل ويملي إرشاداته طول الليل والنهار ويعززها بقوله "يجب أن نحمل كل شيء معنا. إن الألوف المؤلفة التي في حملتي لا يكفيها قمح بلد ما تحتله أو تستقر به ولا ما فيه من طعام. فما لم نتخذ حيطتنا عرضنا الجيش لجوع محقق إن عاجلاً أو آجلاً".

وكان قوام الجيش أربعمائة وعشرين ألف رجل نظموا في ثلاثة عشر فيلقاً عدا الحرس الإمبراطوري وكان يصحبها بضعة آلاف من عربات الذخيرة وقطعان لا حصر لها من الثيران وألف وثلاثمائة واثنان وستون مدفعاً وعشرون ألف عربة من مختلف الأحجام ومائة وسبعة وثمانون ألف حصان. وتحركت هذه الجحافل كتلة واحدة حتى وصلت إلى ضفة نهر

(النيمن) وكان الجو بديعاً والسماء صافية والحقول خضراً مزدهرة وكانت الساعة الثانية صباحاً عندما وصل نابليون إلى بلدة (كاونو) فأخذ ينظر إلى الفضاء الواسع أمامه على الضفة الأخرى من النهر فشعر بدهشة غريبة إذ لم يواجه إلا ظلاماً دامساً وكان كل شيء يدل على أن أهل هذه المدائن قد هجروها. والواقع أن القيصر اسكندر كان قد أصدر تعليماته بأن يتقهقر الجيش بانتظام أمام العدو وأن يدمر في أثناء انسحابه المنتظم جميع الجسور والقرى والمدائن فلا يترك للعدو سوى الجوع والعراء والحر اللافح أو البرد القارص.

ونصبت الجسور في ثلاثة مواقع من النهر وأخذ الجيش يعبره في نظام ودقة والإمبراطور يراقبه عن كثب وبرغم حرصه على أن لا يفقد جندياً واحداً في أثناء عبور النهر فإن بعض الفرسان البولنديين حاولوا عبور النهر وهم على ظهور جيادهم فاكتسحهم التيار وقبل أن يبتلعهم اليم نظروا خلفهم وألقوا نظرتهم الأخيرة على نابليون وصاحوا وهم في النزع الأخير "يحيى الإمبراطور!". ومضى الجيش في زحفه حتى وصل إلى ضواحي مدينة (فيلنا) في اليوم السابع والعشرين. وكان القيصر ألكسندر في حفلة راقصة في قصر أحد النبلاء فلما سمع أن نابليون يجتاز نهر النيمن أسرع إلى مغادرتها بعد أن أصدر أوامره بأن تحرق جميع ممتلكاته ومخازنه بما فيها حتى لا تقع في أيدي العدو.

ودخل نابليون مدينة (فيلنا) في ٢٨ يونيو فاستقبل استقبال الغزاة الفاتحين. لأن هذه المدينة كانت عاصمة ذلك الجزء من بولندا الذي

اغتصبه الروسيون. فعدَّ أهلها الإمبراطور محررهم من الاستعباد ومعيد مجد مملكتهم التي اقتسمتها الدول المحيطة بها.

ومكث نابليون في هذه المدينة ثمانية عشر يوماً نظم فيها شئون جيشه واعتنى بأمر سكان الأرض المحتلة فأقام فيهم حكماً صالحاً وهو ينتظر وصول مؤن لجيشه الكبير. وعلى الرغم من أنه لم يخض معركة ما فإنه فقد عشرة آلاف حصان نفقت جوعاً وتعباً وامتلأت المستشفيات بالمرضى من رجال جيشه حتى لقد لجأ إليها خمس وعشرون ألفاً من الجنود.

وفي أثناء مقامه بهذه المدينة أرسل إليه القيصر رسولاً ليعرض عليه استعداده للدخول في مفاوضات للصلح على شرط أن يتقهقر نابليون بجنوده إلى ما وراء نهر (النيمن) فرفض الإمبراطور على الفور وأظهر استعداده للمفاوضة على شروط معقولة. ولكن القيصر لم يسعه إلا الرفض نظراً لارتباطه بمعاهدات مع انكلترا حددت في ذلك الوقت حريته في العمل.

ومضى نابليون في تقدمه والروسيون ينسحبون أمامه تاركين وراءهم الخراب والدمار والنار في كل مكان فكانت جياده تنفق لعدم وجود العلف اللازم وجنوده يفنون جماعات جماعات من الجوع، وكان الجيش قد توغل لخمسمائة ميل في داخل الأراضي الروسية بدون أن يلقى مقاومة أو عدواً. فجمع نابليون مجلس الجيش فأشار عليه معظم أركان حربه أن يوقف الزحف حتى حلول الربيع. ولكنه رفض هذا الاقتراح رفضاً حاسماً وعزم

على مواصلة الزحف حتى يحتفظ بسمعته بين رجال جيشه وأفراد الشعب الفرنسي الذين كانوا ينتظرون في لهفة وجزع نتيجة الحملة الروسية. وكان نابليون يعلم أن القيصر قد جمع قواته وعتاده عند مدينة سمولنك استعداداً لموقعة فاصلة. فاستأنف زحفه في يوم ١٣ أغسطس وكان الحر شديداً لافحاً فمات كثير من جنوده ونفق كثير من خيله. وبعد رحلة شاقة مضنية وصل إلى أبواب سمولنك مساء يوم ١٦ أغسطس فاعتلى نابليون ربوة عالية وأخذ يرقب بمنظاره جموع العدو المحتشدة في نظام واستعداد فصاح وهو مغتبط من أعماق قلبه "ها قد وجدتهم أخيراً" وحدث قتال بين طلائع الجيشين، نجح الروس في أثنائها في إخلاء المدينة وتدمير مستودعاتها. وبعد منتصف الليل فوجئ الفرنسيون باندلا ع حرائق هائلة أتت على ما بالمدينة من قصور ومنازل ومخازن وكنائس. فنظر نابليون في سكون وحزم إلى هذا الحريق المخيف وقال "إن هذا المنظر يشبه ما يراه سكان نابولي عندما يثور بركان فيزوف" وعندما دخلت فرقة فرنسية المدينة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل لم تجد فيها جندياً روسياً واحداً بل بلغت قسوة الروسيين في تقهقرهم أن تركوا جرحاهم وموتاهم طعمة للنيران. وكان أول أمر أصدره نابليون هو العناية بهؤلاء التاعسين والرفق بهم ما أمكن. وعندما لاح الفجر صعد الإمبراطور إلى قمة إحدى القلاع وسدد منظاره إلى الجيش المنسحب فوجده قد انقسم قسمين أحدهما اتجه شمالاً في طريق بطرسبرج والآخر نحو موسكو. فأصدر أوامره بملاحقة العدو ونصب المارشال ناي قائداً على الجيش المتجه نحو موسكو.

وبينما نابليون يتجول في أنحاء المدينة متطلعاً إلى خرائبها ونيرانها المندلعة تقدم منه كاهن روسي تخلف في المدينة ليعني بالجرحى والنساء والأطفال، وفي نبرات تنم على الشجاعة حمّل نابليون تبعة ما حلَّ بالمدينة من خراب ودمار فأنصت إليه الإمبراطور باحترام حتى انتهى من حديثه ثم سأله "هل أصيبت كنيستك أيها الأب بضرر ما؟".

فأجابه القس "إن إرادة الله فوق إرادتك أيها الإمبراطور. إن الله حفظ كنيستي ليؤوى إليها التاعسون الذين حرقت بيوتهم وأصبحوا بلا مأوى".

فتأثر الإمبراطور وقال "إنك لعلى حق أيها الأب. إن الله سيرعى ضحايا هذه الحرب الغشوم وسيكافئك على شجاعتك وصبرك. اذهب أيها الكاهن إلى كنيستك وبلغ جميع زملائك أنهم في أمان لأنهم يخدمون قضية السلم التي كلفتهم العناية الإلهية رعايتها. إننا جميعاً مسيحيون. وربكم هو ربنا".

وصرف نابليون الكاهن بكل احترم وأمر بعض جنوده بمرافقته إلى كنيسته. ولما رأى اللاجئون في الكنيسة الجنود المرافقين للكاهن صرخوا فزعاً ورعباً فطمأنهم القس قائلاً "لا تخافوا يا أولادي قد رأيت نابليون وتكلمت معه إنه بشر مثلنا ويعبد الإله الذي نعبده. إن حربه حرب سياسية وليست بحرب دينية. إنه في نزاع مع قيصرنا، وجنوده تحارب جنودنا. إنهم لا يذبحون النساء والأطفال كما قيل لنا".

وتابع نابليون مطاردة الجيش المتقهقر. وبرغم انتصاراته المتوالية فقد استمر الروسيون في سياسة التخريب والتدمير. فأخذت الجيوش الفرنسية تعاني الأمرين لقلة المئونة والطعام والمأوى. وازدحمت المباني التي نجت من فعل النيران بآلاف الجرحى والمرضى. وكان الإمبراطور في حالة يأس شديد، إن النكوص يعرضه لسخرية أوروبا والتقدم لا يمليه عليه إلا القنوط، ومع ذلك صمم على مطاردة الجيش الروسي حتى موسكو بجيشه الجائع العاري تقريباً ولم يكن يخطر له أن القيصر اسكندر سوف يجرؤ على حرق موسكو بآثارها الخالدة ومجدها التليد وسكانها البالغ عددهم ثلاثمائة ألف نسمة.

وكان التقدم بطيئاً ومضنياً. وشنت العصابات الروسية حربها على الجنود المنهكين وأقامت كل عقبة ممكنة في سبيل الجيش التعس حتى إذا كان يوم ٤ سبتمبر وصلوا إلى مدينة (بورودينو) حيث صادفوا أول مقاومة جدية، إذ ترصدهم جيش قوامه مائة وسبعون ألف جندي مجهزين أتم تجهيز ومستعدين لبذل آخر قطرة في سبيل حماية الطريق إلى موسكو. وفحص نابليون جموع العدو المحتشدة عن بعد وأدرك بنظرته الفاحصة مواطن الضعف التي يجب أن يسدد هجومه إليه ليوقع الارتباك في صفوف العدو. ونصبت الخيام وأخذ الجيش يتأهب للهجوم.

وجلس نابليون في خيمته يفكر فيما قد يأتي به الغد، وإذا برسول يحمل إليه خطاباً وصل في تلك الساعة من زوجته ماري لويز ومعه صورة لولده العزيز. وكان الفجر يوشك أن ينبلج وكان نابليون يتوقع معركة دامية فاصلة عند انبلاجه، ولكن ذلك لم يشغله عن استقبال الرسول في الحال

فأخذ منه الرسالة بلهفة عظيمة وحالما وقع نظره على ولده المحبوب انهمرت الدموع من عينيه. وكانت الصورة تمثل الطفل وهو يلعب في مهده وأمامه كرة وكأس. وأراد الإمبراطور أن يشارك معه ضباطه وجنوده في سروره ونشوته فقام من مقعده ووضع الصورة على كرسي خارج الخيمة. فتجمع حولها الضباط والجنود ونظروا إليها في سكون مقابلين بين حالتهم الرثة المتعبة وبين ما تسعد به تلك الطفولة البريئة من هدوء وراحة بال. ثم أمر نابليون سكرتيره بإدخالها ثانية إلى الخيمة وقال في حزن "خذها إلى الداخل وحافظ عليها. يجب أن لا تقع عيناه على ميدان قتال وهو في هذه الطراوة".

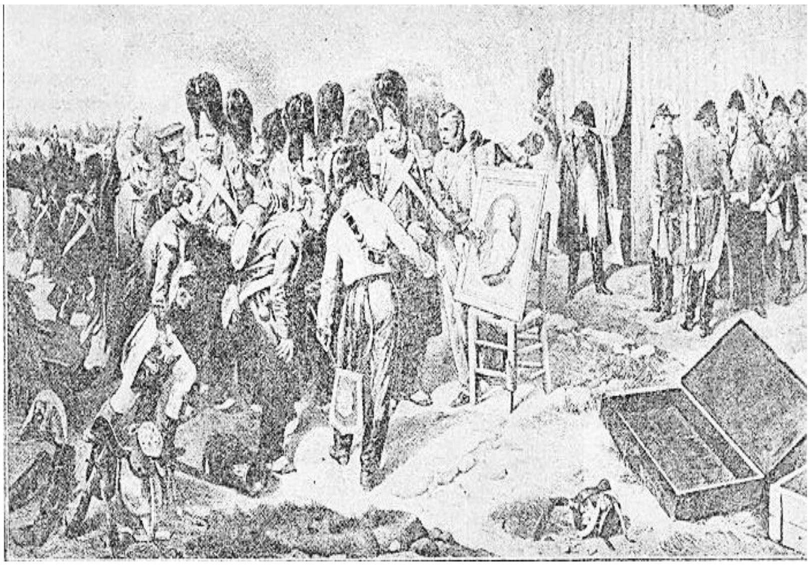
وحاول نابليون أن ينام قليلاً وسكن تعبه وجزعه حالا دون ذلك وأصابه عطش شديد وعبثاً أن يروي غليله. وما أن بزغ الفجر وانقشعت السحب حتى امتطى نابليون صهوة جواده ونظر إلى الشمس المشرقة في انشراح وأمل وقال لمن حوله "إنني أرى شمس أوسترليتز" وكانت معركة حامية كلف النصر فيها نابليون غالياً، فقد فقد ثمانية من أعظم قواده من بينهم كونت كولينكور. وما جاء يوم ٨ سبتمبر حتى ملك نابليون ناصية الموقف فاحتلَّ المدينة بينما بدأ الجيش الروسي في التقهقر نحو موسكو، ولم يفرح نابليون بتلك النتيجة لأنه فقد في تلك المعركة ثلاثين ألف جندي وثلاثة وأربعين من قواده الذين لازموه في انتصاراته السابقة بين جريح وقتيل، وتخيل حزن اليتامى والأرامل والوالدين الذين فقدوا أعزاءهم في تلك المعركة الدامية وثوب الحداد الذي سوف تلبسه فرنسا لضخامة الخسارة وكثرة الضحايا.

ومضى نابليون في زحفه حتى وصل إلى أبواب موسكو ظهر يوم ١٤ سبتمبر وبينما هو معتلٍ صهوة جواده أمسك بمنظاره وأخذ يتطلع من بعيد إلى موسكو الخالدة بقبابها ومآذنها وصاح من قلبه قائلاً "يا إلهي! ها هي ذي عاصمة القياصرة المشهورة" وظن الجنود البؤساء أن متاعبهم قد قاربت الانتهاء فأخذوا يصيحون بدورهم "موسكو! موسكو!" وأسرعوا في التقدم نحو المدينة ولكن عجبهم كان شديداً إذ لم يلاحظوا عليها أثراً ما للحياة أو الحركة. وجاءتهم الأخبار من فرق الكشافة أن الروسيين قد هجروا المدينة. ولم يخطر لنابليون أن النية مبيتة على إشعال النار فيها بالرغم من أن معظم سكانها قد أرغموا على اللجوء إلى الغابات المجاورة حيث هلك كثيرون جوعاً وبرداً. بينما لحق الباقون بالجيش المتقهقر. وكان الانسحاب سريعاً حتى إن السيدات تركن حليهنَّ وأدوات زينتهنَّ في أماكنها، وخلَّف رجال الأعمال أوراقهم ومجلداتهم ومستنداتهم على المكاتب وفي الأدراج.

وعين نابليون (مورتييه) حاكماً على المدينة. وفي الصباح انتقل إلى قصر الكرملين واتخذه مقراً وكتب إلى القيصر ألكسندر يعرض عليه صلحاً شريفاً مذكراً إياه بصداقتهما القديمة. وأخذ الجنود يجولون في أنحاء المدينة المهجورة. واحتلوا قصورها الفخمة واتخذوا منها مساكن لهم.

وبقي بالمدينة حوالي العشرين ألفاً من أحط طبقات الروس وعشرة آلاف مسجون أطلق سراحهم قبل انسحاب الجيش فأخذوا يعدون العدة في الخفاء لتدمير المدينة وإحراقها فتسللوا إلى أقبية الكرملين حيث كان

يقيم نابليون وأركان حربه وإلى جميع القصور والأبنية التي يقيم فيها الفرنسيون ودسوا فيها سراً مقادير من البارود تكفل لهم الانتقام من محتليها في الوقت المناسب. ثم دمروا خزانات المياه وأنابيبها وعطلوا



عندما وصلت صورة النسر الصغير

أدوات إطفاء الحريق وقد انتهز هؤلاء الروسيون فرصة الهرج الذي ساد عند دخول الفرنسيين المدينة ودبروا خططهم دون أن يلحظهم أحد.

وآوي نابليون إلى فراشه في منتصف ليل ١٦ سبتمبر ١٨١٢ وهو في أشد حالات التعب وشرود الفكر وانشغال البال. وكانت العواصف تهب بشدة. وفجأة امتلأت الشوارع بتلك الصيحة المخيفة التي طالما خشيها نابليون ألا وهي "النار! النار!" واندلعت ألسنة اللهب في شرق المدينة وسمع دوي الانفجار في كل مكان فعصفت بالمنازل والقصور

وأودت بحياة من فيها. وشوهدت منازل كثيرة وهي تتطاير في الهواء من هول الانفجار. واهتزت أرجاء المدينة في شبه زلزال مخيف، أو بركان يقذف حممه. وساعدت العواصف على امتداد ألسنة النار في جميع أنحاء المدينة فتحولت المدينة في مدة قصيرة إلى جحيم.

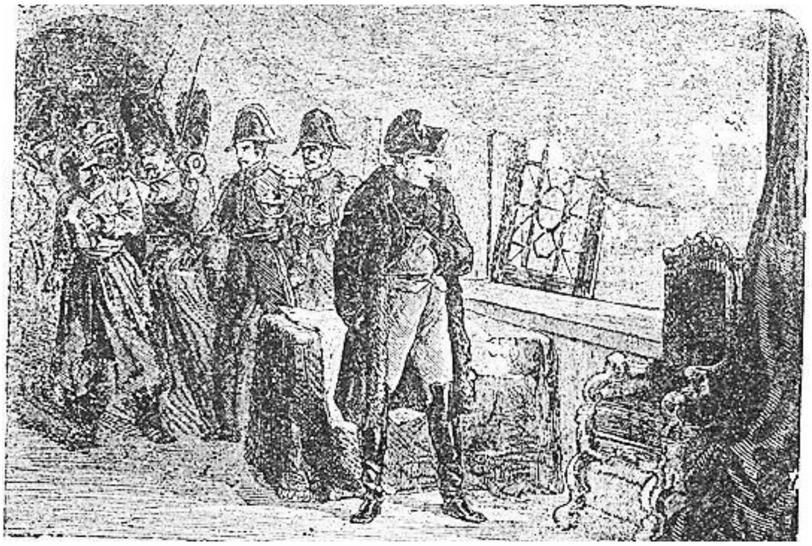
واستيقظ نابليون من نومه وهو جزع مضطرب وأخذ يذرع غرفته جيئةً وذهاباً يملي أوامره بينما ينظر في يأس واضطراب إلى النيران المندلعة. وكان قصر الكرملين تحيط به حدائق واسعة وأسوار عالية تحول دون وصول النار إليه. فأخذ نابليون يتمتم قائلاً "يا له من منظر مخيف يا إلهي! هل تذهب جميع هذه القصور الفخمة طعمة النيران. يا لهم من قوم قساة! إنها أساليب وخطط وحشية". واستمرت النيران طيلة يوم ١٧ سبتمبر وساعدتها الزوابع على الانتشار.

وأخيراً وصلت النيران إلى قصر الكرملين وأحاطت به من كل جانب حتى بدأ الهرب منه لأول وهلة في حكم المستحيل. وأخذ الإمبراطور وحاشيته يبحثون عبثاً عن مخرج لهم من هذا الجحيم وقد كادوا يختنقون بفعل الدخان والنار. وكانوا كلما ظنوا أن الفرج قريب اندلع ستار من اللهب فسدَّ طريقهم. وأخيراً وجدوا طريقاً ضيقاً متعرجاً اضطروا إلى اقتحامه بالرغم من اندلاع النيران على جانبيه. ولكن ما الحيلة وقد كان ذلك مخرجهم الوحيد من موت محقق. واستمروا في سيرهم والدخان يفعل فعله في عيونهم وحناجرهم. وفجأة وقف مرشدهم وقال إنه لا يعلم إلى أي طريق هم متجهون، فأسقط في أيديهم وظنوا أن النهاية قربت وأسلموا

أمرهم إلى القدر. ووقف نابليون في هدوء وسكينة يفكر في طريقة للخروج من هذا المأزق. وفجأة ظهر المارشال (دافوست)، وكان برفقة بعض الجنود يبحث عن مولاه، فما كاد يلمحه نابليون حتى احتضنه بشوق ولهفة ثم تابع معه السير إلى خارج أسوار المدينة حيث لجأ إلى قصر بتروفسكي على بعد ثلاثة أميال من المدينة.

وانسحب الجيش الفرنسي من المدينة وعسكر في الفضاء الواقع حولها. وكان الجزع والجوع قد أخذا منه كل مأخذ. وكان الشتاء يقترب ببرده القارس وقد حرمهم حريق موسكو مأوى يلجئون إليه عند اشتداد البرد، وكان يفصلهم عن فرنسا المحبوبة أكثر من ألفين من الأميال، فكان الموقف على العموم داعياً إلى اليأس والقنوط.

وأخذت النيران تميل إلى الخمود، ونجا جانب كبير من الكرملين من فعل النار فعاد نابليون إليه مع حاشيته في يوم ١٨ سبتمبر. وهو ينتظر وصول رد من القيصر اسكندر على خطابه ولما لم يصله الرد أرسل مندوباً من قبله لمقابلة القائد العام الروسي (كوتوسوف) فقابله هذا بفتور ووعده بمقابلة مولاه القيصر ليعرض عليه خطاب نابليون.



نابليون في قصر الكرملين ينظر إلى الكرسي الذي لطالما جلس عليه القيصر

وتحت تأثير هذه العوامل المختلفة دعا نابليون مجلس أركان حربه للتشاور، وبعد مناقشات تاريخية استقرَّ الرأي على الانسحاب من روسيا.

مكث نابليون وجيشه في موسكو مدة أربعة أسابيع بعد احتلالها. ولم يأت جهداً خلال هذه المدة في إعادة تنظيم جيشه وإقرار النظام بعد الفوضى التي سادت عقب حريق موسكو المدمّر. ما أكثر الليالي التي قضاها وهو يعمل على راحة جنده وخاصة الجرحى منهم ويراقب في قلق تطور الجو المنتظر فراجع التقارير الجوية عن الأربعين السنة التي سبقت الحملة ليستوثق بنفسه من ميعاد بدء الشتاء الحقيقي في روسيا وكان يحدوه أمل الصلح مع القيصر ولكنه تبين الخطر فاستفحل همه وشحب لونه ونقص وزنه.

وبحلول شهر أكتوبر بدأت أوراق الأشجار تتساقط تاركة الأغصان عارية تتلقفها رياح الشمال العاتية، وبدأ الثلج والصقيع قبل ميعاده الطبيعي بثلاثة أسابيع مما زاد في هم الإمبراطور وتصميمه على الإسراع في الارتماء في أحضان بولندا، بمدنها العامرة حيث يجد الجنود ناراً وطعاماً ومأوى. وبالرغم من أن المسافة إلى بولندا حوالي ألف ميل إلا أنه صمم على القيام بهذه المغامرة معتزماً أن يسلك طريقاً آخر غير الذي سلكه عند زحفه آملاً أن يصادف مدائن عامرة بدل الخرائب والأطلال والحرائق التي تركها الروس وراءهم عند تقهقرهم.

وبدأ التقهقر في يوم ١٨ أكتوبر ١٨١٢. وعهد نابليون إلى مورتييه – وكان قد عينه حاكماً على موسكو – في حماية مؤخرة الجيش وترك معه ثمانية آلاف جندي. وخرج الإمبراطور من قصر الكرملين في فجر ١٩ أكتوبر وكانت السماء صافية والهواء بارداً منعشاً والنجوم تتألق. ولما خرج نابليون من حدود موسكو كانت الشمس قد أشرقت في الأفق البعيد فأشار إليها نابليون بأصبعه قائلاً لمن حوله "أنظروا يا رفاقي! ها هو نجمي الحارس! هيا بنا إلى كالوجا. والويل لمن يقف في طريقي!".

ثم تقدم إلى مورتييه – حاكم موسكو – واحتضنه وقال له بصراحة وحزن "إن مهمتك شاقة وخطيرة ولكن علينا واجبات وتضحيات سوف نتقاسمها جميعاً".

وقد احتمى مورتييه وراء أسوار الكرملين، ووضع في أقبيته وسراديبه مائة وثلاثة وثمانين ألف رطل من البارود ووزع براميل كثيرة منه في غرف

القصر وممراته حتى إذا ما استوثق من أن آخر جندي فرنسي قد رحل عن المدينة أشعل النار في البارود فأخذ يشتعل ببطء بينما أخذ هو وجنوده ينسحبون بسرعة، ولما رأى القوزاق أن القصر خالياً هجموا عليه طامعين في الاستيلاء على ما به من نفائس، ولكن ما لبث أن دوى في الجو صوت انفجار هائل أتى على القصر وما به وقضى على عدد كبير من جنود العدو. وكان الانفجار شديداً فاستيقظ نابليون من نومه مع أنه كان على مسيرة ثلاثين ميلاً من موسكو، فتنهد تنهد الارتياح إذ علم أن جنود المؤخرة قد غادروا المدينة.

وبدأ الروس يناوشون الجيش المنسحب في مساء ٢٣ أكتوبر وكان الجنود مستغرقين في نوم عميق وقد أنهكهم عناء السير طول النهار. ففي الساعة الرابعة صباحاً هجم عليهم خمسون ألف جندي روسي وكانت صرخات الحرب المزعجة تنطلق من حناجرهم في سكون الليل. فأسرع الأمير أوجين إلى جنود فرقته وأيقظهم من سباتهم ليقاتلوا العدو المغير وبعد معركة شديدة خسر فيها الفريقان اضطر الروسيون إلى الانسحاب نحو الغابات المجاورة ولما سمع نابليون بما فعله أوجين دعاه إليه وضمه إلى صدره في حنان أبوي وقال "هذا أمجد ما قمت به في حياتك".

واستمرت كرات العدو في فترات متقطعة على الجيش التعس ورغم ذلك صمم نابليون على متابعة السير ليصل إلى سمولنسك ومنسك مهما يكلفه ذلك حيث كان قد ترك حامية قوية وأعدَّ ثكنات للجنود بها جميع وسائل الراحة. وكان الروسيون يبدون منتهى القسوة في هجومهم على

جيش نابليون وكانوا يغيرون عليه في الليل والنهار بلا هوادة غير مبالين بحاجة جنوده إلى ساعات قليلة من الراحة في الليل أو النهار، ومضى الجيش المنهك في رحلته المحفوفة بالأخطار فوصل إلى بورودينو في يوم ٢٨ أكتوبر وفيازما في يوم ٣١ منه. وهناك عهد إلى المارشال (ناي) في مهمة حماية مؤخرة الجيش، وعندما استأنف الجنود سيرهم هبت عاصفة ثلجية على الجنود ودفن الكثيرون منهم أحياء تحت الثلج. ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل أحاطت بالجيش وهو في محنته جماعات من جنود العدو وأخذوا يصلونه ناراً حامية. وكان القوزاق يمثلون بجثث الموتى أشنع تمثيل، وكانوا إذا رأوا جندياً يعالج سكرات الموت ينزعون ملابسه ويتركونه عارياً وسط الثلوج وينصرفون عنه وهم يضحكون في قسوة وغلظة. أما إذا أخذتهم الشفقة عليه فإنهم كانوا يشطرونه بسيوفهم أو ينخسونه بالسنج حتى يدركه الموت.

وهكذا استمرت الحال طيلة الطريق إلى سمولنسك، يأتي الليل الطويل ببرده وثلجه وعواصفه فتهلك معه الألوف من الجنود والخيل. وكان الجنود ينزعون جلود الجياد النافقة ويلتحفون بها، وكانوا يضطرون أحياناً إلى قتل الجياد حتى يرتوي الجنود بدمائها الساخنة لعلها تساعدهم على مقاومة البرد. وكان المارشال (ناي) طيلة الرحلة يتولى حماية المؤخرة على أوفى وجه. وكان جنوده يسقطون الواحد تلو الآخر حتى يفنوا عن آخرهم فيستبدلهم بغيرهم، وأبدى المارشال من ضروب الشجاعة والبطولة ما جعل نابليون يطلق عليه لقب "أشجع الشجعان".

وقبيل الوصول إلى سمولنسك جاء رسول يحمل بعض الرسائل إلى الإمبراطور فأخذ يفضها باهتمام وتلهف فإذا به يعلم بتدبير مؤامرة في باريس لقلب الحكومة الإمبراطورية. فقد زور أحد الضباط واسمه (ماليه) مستنداً يثبت موت نابليون في أثناء الحملة الروسية فساد الذعر في البلاد وانتهز ماليه الفرصة وجمع حوله بضع مئات من الحرس الأهلي وحاول أن يقبض على زمام الحكم ولكن المؤامرة سرعان ما أحبطت وقبض على الضابط وأعدم رمياً بالرصاص.

فصمم الإمبراطور على أثر قراءة هذا التقرير أن يسافر وحده في أقرب فرصة يطمئن فيها على مصير جيشه ولما دخل غرفته استدعى الجنرال راب وقال له "إن المصائب لا تأتي فرادى! كأن الله يريد أن يزيد في متاعبي وأشجاني! إن وجودي في باريس ضروري ويجب أن أعود إليها في القريب العاجل".

ومكث نابليون في سمولنسك خمسة أيام استجمع فيها قوات جيشه وشراذمه المبعثرة وما أن استأنف رحلته حتى بدأت معها متاعب أخرى مردَّها إلى إغارات العدو المتوالية. وكان أهمها الهجوم الكبير الذي قام به القائد الروسي كوتوسوف بجيشه من تسعين ألف رجل وافي العدة ووافر الغذاء والملبس، وكانت المعركة شديدة خسر فيها نابليون الآلاف المؤلفة من جنوده واضطر لامتشاق الحسام بنفسه قائلاً "إنني أنزل من مقامي كإمبراطور لأعود إلى منصب الجنرال الذي طالما تقت إليه".

وقاد جنوده واخترق صفوف العدو وأوقع الاضطراب فيها مما اضطرهم إلى الانسحاب رغم تفوقهم عدداً وعُدّة بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة.

وواصل الجيش سيره وقد أخذت منه الضربات المتوالية كل مأخذ ولعلّ كارثة عبور نهر (البيريسينا) كانت أشد كارثة لحقت بالجيش الفرنسي. وكان الروس قد دمروا الجسر الوحيد القائم على النهر. فكان على الفرنسيين أن يقيموا جسراً آخر، وفعلاً نجحوا في تحويل أنظار العدو المتربص بهم ريثما أتموا بناء الجسر وكانوا يشتغلون في أثناء الليل ويختبئون في الغابات في أثناء النهار. وكان الإمبراطور يشرف بنفسه على العمل.

ولما حان وقت عبور النهر تقدم نابليون الجموع وعبر النهر إلى الضفة الأخرى وقد صاح عند وصوله قائلاً "إن نجمي لا يزال عالياً!" ولكنه ما كاد يتم كلمته حتى قصفت مدافع الروس وصوبت قنابلها الفتاكة نحو الجسر فغرق وقتل ألوف من جنوده، ولكن نابليون جمع قواته البالغ عددهم بضع عشرات من الألوف ورد هجوم العدو بينما أخذ المهندسون في إصلاح الجسر منتهزين فرصة انصراف العدو عنهم، واضطر العدو أخيراً إلى التقهقر مؤجلاً انتقامه إلى فرصة أخرى.

ووصل الجيش المنكوب إلى الأراضي البولندية واطمأن نابليون نوعاً ما فدعا قواده إلى العشاء معه وبعد أن فرغوا منه أبدى لهم رغبته في الرحيل إلى فرنسا تاركاً لهم مهمة إتمام الرحلة مؤكداً لهم أنه سيعود إليهم قريباً على رأس ثلاثمائة ألف جندي مجهزين مدربين ليستأنف زحفه على

روسيا، ثم ضمهم إلى صدره الواحد بعد الآخر، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساء، فأعدت له زحافتان انتظرتاه عند الباب فتجمع حوله ضباطه مودعين إياه في تأثر، وركب إحداها نابليون وجلس بجانبه كولينكور (وهو شقيق القائد الذي قتل قبلاً) وركب الأخرى دوروك ولوبان، وكان حرسهم مؤلفاً من بعض أفراد الحرس الإمبراطوري.

وبعد رحلة قصيرة تعرض نابليون في أثنائها للأسر بضع مرات وصل الجميع بسلام إلى (فيلنا) ودخلوا وارسو في ١٠ ديسمبر، وبعد راحة قصيرة استأنفوا رحلتهم فوصلوا درسدن في الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ١٤ ديسمبر وفي منتصف ليل ١٨ ديسمبر كانوا على أبواب باريس.

وكانت الإمبراطورة في ذلك الوقت قد أوت إلى مضجعها في قصر التويلري ولم يكد يخطر لها أن زوجها الإمبراطور بباب القصر، وفجأة سمعت أصوات عالية صادرة من الحرس الواقفين في الردهة الخارجية وبدرت من إحدى الوصيفات صرخة خافتة فاستوثقت الإمبراطورة من أن شيئاً غير عادي قد حصل فقفزت من سريرها وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل رجل قصير القامة وقد غطى جسمه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه بالفرو الثقيل وهجم عليها واحتضنها ولما دققت النظر عرفت فيه زوجها الإمبراطور.

وألقى نابليون هم الحملة الروسية وراءه على المارشال (ناي) وأعوانه، وأبدى المارشال شجاعة وتجلداً سوف يتحدث عنهما التاريخ مدى أجيال مقبلة، وعند عبور نهر (النيمن) الذي تنتهي عنده الأراضي الروسية كان

هو آخر من عبر النهر، وأطلق آخر رصاصة لديه على الجنود الروسيين المتربصين على الضفة الأخرى ثم ألقى مسدسه في النهر وواصل سيره، حتى بلغ منزل طبيب القرية المجاورة فوجد هناك صديقه الجنرال (دوماس) جالساً مع الطبيب وهما يتحدثان، وكان المارشال يمثل الحملة بمتاعبها وبؤسها والأهوال التي لاقتها فكان ضامر الجسم شاحب الوجه طويل الذقن وقد اسود جلده من دخان البارود، وما أن دخل الغرفة حتى ارتمى على مقعد قريب وقال "إنني هنا أخيراً. ماذا دهاك يا دوماس ولماذا تنظر إليّ هكذا ألا تعرفني؟" فكان الجواب "لا! من أنت؟".

فقال (ناي) "إنني مؤخرة الجيش الإمبراطوري. أنا المارشال ناي، لقد أطلقت آخر رصاصة عندي بعد عبور جسر كوفنو وألقيت فيه آخر ما تبقى عندي من السلاح ثم اخترقت الغابة المجاورة ووصلت أنفاقاً إلى حيث وجدتك يا صديقي العزيز".

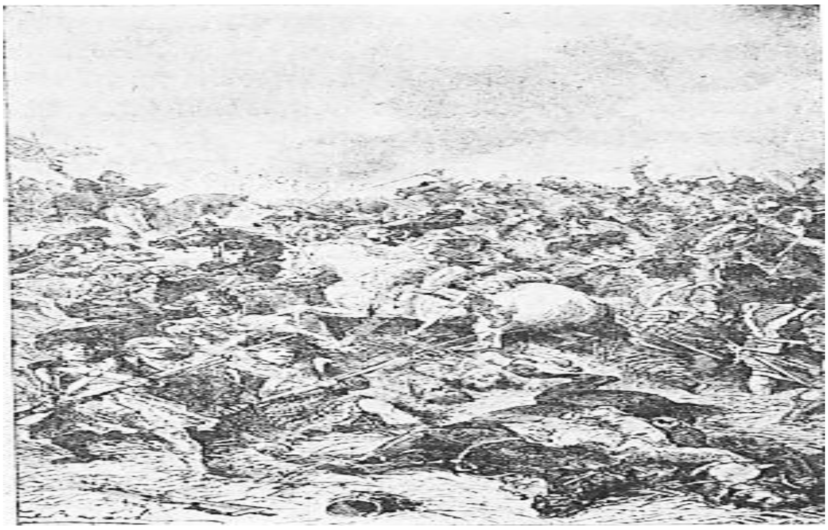
في الأسر

وكأنما نحسه قد بدأ فتوالت النكبات والهزائم، ورضى أن يذهب إلى جزيرة إلبا ليقضي بقية حياته، ولكن طموحه إلى الغزو والسيادة دفعه إلى محاولة الهروب من الجزيرة والعودة إلى أرض الوطن ليجرب حظه مرة أخيرة، فكانت موقعة واترلو، التي عاد منها محطماً مهزوماً، ويبين لنا هذا الباب كيف وقع في أسر أعدائه بعد الهزيمة المنكرة

"دعوني وحدي!"

فاه نابليون بهاتين الكلمتين إذ عاد إلى قصر الأليزيه عقد انسحابه من ساحة واترلو التي أفل فيها نجمه إلى الأبد، وكان وصوله بعد منتصف الليل بقليل، وكان في انتظاره عند باب القصر بعض خدمه المخلصين، وصديقه الحميم كولينكورت، وكان الإعياء بادياً بوضوح على وجهه الذي أضناه التعب والسهر والسفر الطويل؛ وفيما هو يصعد درجات السلم، خانته ساقاه، وكاد يسقط، لولا أن أمسك صديقه بذراعه، وكان هذا الرجل الذي دوخ العلم مطأطئ الرأس، غائر العينين، مهدل الثياب، يتمتم بعبارات الأسى والحزن على ما صار إليه أمره وأمر جنوده وقواده البواسل،

حتى إذا ما وصل مقعد صادفه ارتمى عليه، وتنهد بحرقة، وقال في تضرع لمن حوله: "دعوني وحدي".



أشلاء واترلو

وبعد أن استراح قليلاً قام إلى الحمام، وأزال عن جسمه آثار المعركة، ثم ارتمى على فراشه محاولاً النوم ون جدوى. وأخيراً استدعى صديقه كولينكورت، وأخذ يتحدث معه في هدوء ممزوج بالحزن قائلاً:

"إن الضربة التي أصابتني في واترلو قاتلة بلا ريب، ولا أمل لي في النهوض بعدها، لقد كان مشروعي يرمي إلى منع اتصال الجيشين المعادين، وكدت أنجح لولا أن خانني الوغد بورمونت وانضم إلى الأعداء في آخر لحظة، يا للخائن الوغد! إن دم فرنسا كلها يقع على رأسه، وسوف تحل

عليه اللعنة إلى الأبد! أما جروشي فقد تأخر في الوصول إلى نجدتي، ولا أدري إذا كان ذلك بدافع الخيانة أيضاً".

وبعد أن سكت قليلاً استطرد قائلاً:

"سوف أدعو المجلسين إلى اجتماع أصف لأعضائهما فيه بكل أمانة ودقة تفاصيل النكبة وأسبابها، وأناشدهم القيام بمحاولة أخرى لإنقاذ الوطن فإذا استجابوا دعوتي حملت على الأعداء حملة أرجو الله أن يوفقني فيها".

وساد الفزع والهلع في باريس، وأخذت الأخبار ترد بتقدم قوات بلوخر وولنجتون نحو العاصمة الفرنسية؛ وانتهز أعداء نابليون السياسيون في داخل البلاد فرصة انحطاط القوى النفسية عند الشعب فأخذوا يذيعون أن نابليون هو أُسّ البلاء، وأن الحرب القائمة هي حرب أعلنها الحلفاء ضد نابليون، وليست ضد فرنسا؛ فإذا نبذت فرنسا نابليون وأقصته، نجت من أهوال حرب طاحنة تسيل فيها الدماء بغير حساب، وأخذ هؤلاء الدساسون يناشدون بني وطنهم أن يخلعوه ويختاروا إمبراطوراً جديداً، أو يؤسسوا جمهورية تنقذهم من الوهدة التي أرداهم فيها نابليون.

واجتمع المجلسان، فكانت أغلبية الآراء في غير مصلحة نابليون، الذي استنتج من تفاصيل المناقشات التي وصلت إليه أن تنازله عن العرش أصبح محتماً.

وعندما وصله قرار المجلسين النهائي بمطالبته بالتنازل عن العرش قال

لمن حوله في حزن:

"لقد ضاع كل شيء؛ سوف يملي الحلفاء علينا شروطهم وتقع البلاد تحت رحمتهم. وكل ذلك بسبب هذه الغلطة الشائنة التي ارتكبها النواب والشيوخ بقرارهم عزلي. ماذا يظن هؤلاء السُّذج البلهاء! إن في إمكاني حل المجلسين والتخلص من مضايقة أعضائهما ولكن لا! لن أضحى بعد الآن بفرنسي واحد في سبيل تحقيق مطامعي"

وهكذا انقضى يوم ٢١ يونيو في مناقشات حادة بمجلسي البرلمان ومجلس الوزراء. وأوى نابليون إلى فراشه في آخر الليل سقيماً مضعضع القوى. وسهرت باريس معه طول الليل فلم تنم حتى الصباح بل قامت فيها المظاهرات الحماسية، وطالب الشعب بالسلاح ليحمي إمبراطوره المحبوب، ولكن ماذا تجدي حماسة الشعب وقد قرر ممثلوه عزل الإمبراطور؟

وبزغ فجر ٢٢ يونيو وبونابرت لم يزل في مخدعه، وبينما هو كذلك دخل الغرفة صبي يحمل طعام الإفطار، ولم يتنبه نابليون إلى وجوده في أول الأمر، لولا أن الصبي تجرأ وقال مخاطباً مولاه:

"هلا تفضل مولاي بتناول بعض ما أحضرته له، فإن الغذاء منبه للذهن ومجدد للقوى".

فنظر إليه نابليون بعطف وحزن عميقين وقال له:

"ما أسعدك أيها الصغير، إنني أعلم أنك ريفي ساذج، لقد أخبرتني

قبلاً أن والدك يمتلك كوخاً صغيراً وبعض الأفدنة في بيرفيت، أليس كذلك؟".

فأجاب الصغير في احترام: "نعم يا مولاي".

فتنهد الإمبراطور وقال : "هناك السعادة الحقة؟".

وأخذت الحوادث تتابع بسرعة خلال النهار؛ وتسلم الإمبراطور صيغة قرار أعضاء المجلسين الذي يناشدونه فيه أن يتنازل عن العرش خدمة لفرنسا التي أحبها وأحبته. وقابل نابليون المندوب الذي سلمه القرار بكل رقة ولطف، ووعده بجواب سريع عاجل. ثم أخذ يذرع الغرفة مملياً على سكرتيره نداء للأمة الفرنسية يعلن فيها تنازله عن العرش. ومما جاء فيه: "إن حياتي السياسية قد انتهت إلى الأبد، وأنادي بابني نابليون الثاني إمبراطوراً على فرنسا، وآمل أن يوفق المجلسان بسرعة في تعيين الأوصياء على العرش، حتى تتحد الأمة تحت لواء ملكها الجديد، وتحافظ على كيانها واستقلالها، وأرجو من كل قلبي أن يثبت الحلفاء ما ردَّدوه كثيراً من أن كرههم ونقمتهم منصبَّان على شخصي، وأنهم لا يضمرون لفرنسا إلا كل خير".

وفي المساء أوى الإمبراطور إلى مخدعه، وكان مضاء ببعض الشموع، وكان الضوء ضئيلاً مما بعث الهدوء والطمأنينة في قلب نابليون، وبزغ فجر ٢٣ يونيو فبدأت معه فترة من أحرج الفترات في تاريخ فرنسا؟ فقد كانت جيوش الحلفاء تتقدم بسرعة نحو العاصمة بينما كانت البلاد بلا حاكم ولا

حكومة. وقضى الإمبراطور يومه بقصر الأليزيه كأي مواطن عادي، مجرداً من السلطان، وأخذ يجاذب من حوله أطراف الحديث، ولما سأله أحد أفراد حاشيته عما ينوي عمله، أجاب بدون مبالاة: "لم أقرر بعد ما أنوي عمله، وإني أتساءل: ما الذي يمنعني من البقاء هنا؟ لماذا لا أعيش في معزل عن الناس يحيط بي بعض الأصدقاء الذين أخلصوا لعرشي لا لسطوتي؟ وإذا رفضوا السماح لي بالبقاء في أرض الوطن فإلى أين أذهب؟ لا أظن أن وجودي في انجلترا أمر مرغوب فيه. إذاً فلتكن أمريكا مقصدي، حيث يمكنني أن أعيش في هدوء محتفظاً بكرامتي..".

وازدادت رغبة الإمبراطور في الإسراع بالرحيل، فأرسل إلى الحكومة يطلب منها أن تُعد له بارجتين حربيتين ليرحل بهما عن البلاد، وطلب من فوشيه أن يتوسط لدى الحلفاء ليمنحوه أمان المرور إلى الشاطئ حيث يغادر البلاد، ولكن الدوق ولنجتون رفض هذا الطلب، وأمر بتشديد الرقابة على الشاطئ حتى يحول دون هربه.

وفي ليل ٢٧ يونيو أوعز فوشيه وأعوانه إلى بونابرت أن الباخرتين اللتين طلبهما موجودتان في ميناء روشفور في انتظار أوامره، وأن عليه أن يذهب إلى هذا الميناء لينتظر الفرصة السانحة للإبحار بسلام، ولم يكن ذلك إمعاناً في الإخلاص من فوشيه، ولكن خوفاً من أن يضع الإمبراطور نفسه مرة أخرى في ساعة يأس على رأس الأمة الفرنسية، فتبدأ المتاعب من جديد.

وفي هذه الأثناء استولى الحلفاء على كامبيين، وهي على مسيرة يومين

من باريس. فحاول نابليون أن يلهب الشعور في قلب القائمين بالحكم إذ ذاك، مظهراً استعداده لقيادة الجيش من جديد، وكاد ينجح في مسعاه لولا أن عارضه فوشيه قائلاً: "إن وجود نابليون على رأس الجيش يوغر صدور الحلفاء من جديد، ويجعلهم يتشددون في حملتهم وفي شروط الهدنة والصلح، وكان بلوخر وولنجتون أثناء ذلك واثقين من النصر النهائي، فأخذت جيوشهما تتوغل في الأراضي الفرنسية دون انتظام، بحيث كان من السهل على نابليون أن يردهم على أعقابهم إذا جمع جيشاً قوياً، ألهبت صدور جنوده رغبة ملحة في محو عار موقعة واترلو، وفعلاً ارتدى ثياب المعركة وأعد له جواده على باب القصر، وجمع أركان حربه، ولم يبق إلا موافقة القائمين بالأمر ليمتشق الحسام من جديد. وبينما هو كذلك إذا برسول يحمل إليه جواب الحكومة برفض اقتراحه هذا، فعلّق على هذا القرار بقوله: "حسناً. سوف يندمون على ما فعلوا..." ثم أمر بإعداد معدات الرحيل إلى الشاطئ.

وكان ينتظره عند باب القصر بعض أصدقائه الأوفياء الذين صمموا على مشاركته في محنته حتى النهاية، مثل الكونت برتران وزوجته وأولاده، والكونت مونتولون وزوجته وولده، ولاس كاساس وولده، وركب الجميع العربات المجهزة بالجياد المطهمة قاصدين ميناء روشفور الذي يبعد عن باريس حوالي الثلاثمائة ميل، وكان أصدقائه قد حسبوا حساب أي محاولة لاغتياله فجهزوا أنفسهم بالسلاح والذخيرة، وفي الساعات الأولى من الرحلة لم ينبس أحد منهم ببنت شفة احتراماً لصمته وحزنه.

وصل الركب في الساعة العاشرة مساء إلى رامبوييه حيث قضى الجميع ليلتهم، ثم استؤنفت الرحلة في صباح ٣٠ يونيو؛ وبعد ثلاث ساعات وصلوا إلى شاتودان حيث استقبلتهم صاحبة الفندق سائلة في لهفة – دون أن تعلم شخصية ضيوفها – عن مقدار الصحة في الإشاعة التي ذاعت أخيراً عن اغتيال الإمبراطور، ولكنها لم تكد تلمحه حتى عرفته في الحال، فرفعت عينيها إلى السماء ضامة يديها إلى صدرها، ثم انفجرت باكية كأنها تشكر العناية الإلهية على حمايتها لمن عبدته وقدّسته. وتأثر نابليون حتى اغرورقت عيناه بالدموع، وربت على كتفيها شاكراً لها مهدئاً روعها.

أخيراً وصل الركب إلى ميناء روشفور حيث كانت الباخرتان الحربيتان اللتان أوصى بهما الإمبراطور راسيتين في الميناء، وكان فوشيه قد أوعز إلى الأسطول الإنجليزي أن يشدد الحصار على الشاطئ الفرنسي حتى يحول دون فرار نابليون.

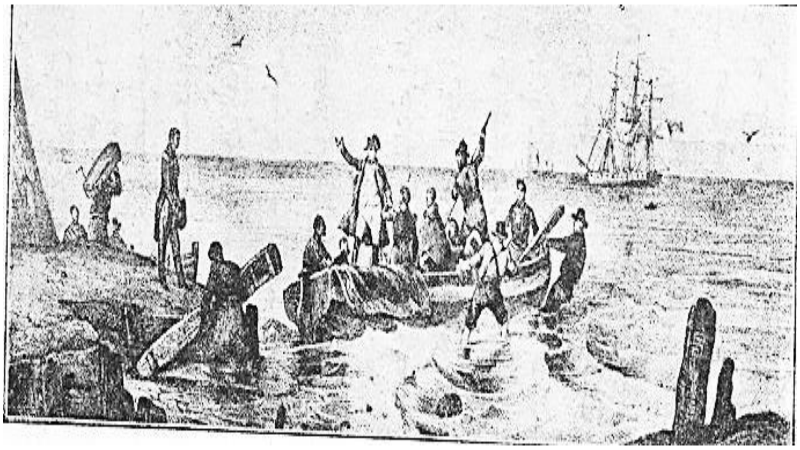
وفي الساعة الرابعة من مساء يوم ٨ يونيو ركب قارباً صغيراً حمله إلى البارجة الفرنسية (سال) حيث قضى يومي ٩ و١٠ يوليو ينتظر عبثاً صدور الأمر إلى البوارج الإنجليزية للسماح له بالمرور. ولما طال انتظاره أوفد شخصين من حاشيته هما الدوق روفيجر ولاس كاساس إلى قائد الأسطول الإنجليزي ليستفهما منه عن سبب تأخر التصريح للإمبراطور بالسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فأخبرهما الكابتن ميتلند، قائد البارجة بليروفون أن لديه أوامر صريحة بأسر أي باخرة تحاول اختراق نطاق

الأسطول المحاصر، وأنه سيتصل على كل حال بالقائد العام للأسطول ليرى إذا كانت لديه أي تعليمات أخرى.

وعندما بلغ نابليون هذا الجواب فكر قليلاً ثم أعلن عزمه على بدء رحلته في الحال ورغم كل عائق، وأمر الدوق روفيجر أن يصدر أمراً باسم الإمبراطور إلى قائد السفينة ليبحر في الحال، وما كان أشد دهشته عندما أجابه الكابتن فيليبرت أن لديه أوامر من الحكومة الفرنسية أن لا يحاول الإبحار إذا وجد في ذلك أي تعريض للسفينة للخطر. وعندها صاح الدوق غاضباً: "إن في الأمر خدعة. إن الحكومة تتآمر على تسليم الإمبراطور للأعداء".

ولما سمع نابليون بذلك قال: "طالما حدثتني نفسي بالتشكك في حقيقة هذا الكابتن الذي كانت ظواهره تدل على عكس ما يبطن، ولكن هناك دائماً الوغد فوشيه وراء الستار".

وفي أثناء هذه المحنة القاسية تقدم قائد الباخرة الدانيماركية (بايادير) – وكانت راسية في الميناء – إلى نابليون عارضاً عليه حمايته، مؤكداً له أن في إمكانه الهرب به من نطاق الحصار، وأخبره أنه قد أعد له مخبأً سرياً في سفينته، لن يتوصل العدو إلى اكتشافه، ولكن الإمبراطور رفض هذا العرض في أدب وظرف، وفضل البقاء أسيراً على أن يترك رفقاءه تحت رحمة أعدائه في داخل البلاد وخارجها.



في الساعة السادسة من صباح يوم ١٥ يوليو ١٨١٥ ترك الشاطئ الفرنسي للمرة الأخيرة واستقل قارباً نقله إلى ظهر السفينة الإنجليزية بلليريفون. ويرى وقد رفع يده اليمنى مودعاً أحد أنصاره الذي وقف مطأطئ الرأس خاشعاً، وقد أبحرت السفينة في اليوم التالي إلى انجلترا.

وكان شقيقه جوزيف بونابرت يشبهه شبهاً كبيراً، فعرض عليه أن يحل محله ويتسلل نابليون بدله إلى بوردو حيث أعدت كل المعدات للرحيل إلى الولايات المتحدة، ولكن الإمبراطور رفض بشدة أن يضحي بأخيه، وشكره على جميل عواطفه.

واقترح البعض عليه أن يعود إلى فرنسا ويبدأ الحرب من جديد، فرفض ذلك أيضاً مفضلاً الموت والأسر على الزج بأمته في أتون حرب أهلية، وآثر الانتظار ريثما يصل إليه جواب القائد الإنجليزي.

أرسل الإمبراطور مندوبيه مرة ثانية إلى الكابتن ميتلند يوم ١٤ يوليو،

فأبلغهما أن الأوامر صدرت إليه بأن يستقبل الإمبراطور على ظهر البارجة بلليروفون إذا رغب السفر إلى إنجلترا، وأنه لذلك يضع سفينته تحت تصرفه، ولما بلغ نابليون هذا القرار أخذ يتشاور مع أصدقائه فيما يجب عمله، فانحازت أغلبية الآراء إلى الرأي القائل بأن يضع الإمبراطور ثقته في الشرف البريطاني ويسلم نفسه للإنجليز، ولم يشذ عن هذا القرار إلا اثنان هما الكونت مونتولون والجنرال جورجود، فإنهما حذراه من الوثوق بوعود الحكومة الإنجليزية مهما كان واثقاً من عطف وكرم ضيافة الشعب الإنجليزي.

وأخيراً تناول الإمبراطور قلماً وقرطاساً وكتب إلى جورج الرابع ملك إنجلترا الخطاب التالي.

"رغبة مني في تجنب سفك الدماء، وإزاء تألب جميع القوى لهدمي، وجدت أن أقوَم سبيل هو إنهاء حياتي السياسية واللجوء إلى إنجلترا لأتمتع بدفء نار الموقد الإنجليزي العتيد، ولأضع نفسي تحت حماية القانون الإنجليزي العادل".

وكانت الساعة إذ ذاك الرابعة بعد الظهر، فأوفد لاسكاساس وجورجود إلى البارجة بلليروفون ليعلنا قائدها أن الإمبراطور سوف يصل إلى ظهرها في اليوم التالي.

وعهد إلى جورجود أيضاً بإيصال الخطاب المرسل إلى جورج الرابع، وطلب منه أن يحاول تسليمه بنفسه إلى يدي الملك. ثم قال له:

"إذا سئلت عن البلاد التي أفضل النزوح إليها، فليكن الاختيار الأول الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا رفضوا ذلك فإني أفضل البقاء في إنجلترا نفسها، حيث يمكنني قضاء بقية حياتي في ريفها الجميل على بعد عشرة أو اثنى عشر ميلاً من لندن متنكراً تحت اسم الكولونيل مويرون أو دوروك، وسأختار لسكناي بيتاً كبيراً يكون فيه متسع لجميع أفراد حاشيتي وزوجاتهم وأولادهم.

وسُمح للجنرال جورجود بالسفر إلى إنجلترا ولكن لم يسمح له بالنزول إلى البر، وأُرسل الخطاب الذي يحمله إلى بلاط سان جيمس على يد رسول خاص.

وفي أثناء ذلك دخل الجنرال الفرنسي بيكر إلى غرفة الإمبراطور في البارجة، وأخبره أنه وصل إلى علمه أن البور بون أرسلوا بعض الضباط للقبض عليه؛ فلما سمع بذلك ارتدى ملابسه بسرعة واستعد للرحيل عند بزوغ الفجر، إذ ركب قارباً صغيراً حمله إلى البارجة الإنجليزية بلليروفون تصحبه حاشية من ضباط وسيدات وأطفال وخدم بلغ مجموعهم ٥٩ شخصاً.

ولما وصل نابليون إلى السفينة استقبله الكابتن ميتلند قائدها وبقية الضباط استقبالاً يليق بمقامه، وحالما وضع قدمه على ظهر السفينة خاطب قائدها قائلاً:

"إنني أتيت إلى سفينتك لأضع نفسي تحت حماية القانون الإنجليزي".

فانحنى القائد باحترام وتأثر، وصحب الإمبراطور إلى غرفة أعدت له، ثم قدم له جميع ضباط الباخرة.

وأقلعت السفينة قاصدة إنجلترا، وبينما هي سائرة في طريقها أوقفتها سفينة إنجليزية أخرى تحمل اسم (سوبرب) وطلب قائدها أن يسمح له بالمثول بين يدي الإمبراطور ليبدي له احتراماته وليرجو منه قبل دعوته لتناول الإفطار على ظهر سفينته، وقد قبل نابليون الدعوة واستقبل هناك استقبالاً رسمياً حافلاً، ولما عرض عليه قائدها أن يمضي بقية الرحلة في بارجته لتوفر وسائل الراحة عنده أكثر من البارجة بلليروفون، رفض في تأدب وظرف قائلاً:

"إنني أخاف إن فعلت ذلك أن أوذي شعور الكابتن ميتلند الذي لم أُلاق منه حتى الآن إلا كل رقة وأدب في المعاملة، ولا أجد سبيلاً لرد جميله إلا بالبقاء ببارجته حتى نهاية الرحلة، عسى أن يؤدي ذلك إلى ترقيته لرتبة أعلى".

واستغرقت الرحلة إلى الشاطئ البريطاني حوالي تسعة أيام، لأن الرياح كانت شديدة والأمواج متلاطمة؛ وقد سر الإمبراطور كثيراً من الرحلة، وكان يقضي معظم الوقت بين ضباط البارجة وبحارتها، مظهراً إعجابه بنظامهم وهندامهم، وقد قال ذات مرة:

"إن النظام والهدوء اللذين يسودان البحارة يدعو إلى الإعجاب العظيم! إنك لا تسمع على ظهر الباخرة الفرنسية إلا كل ضوضاء وشوشرة دونها أصوات الإوز ونقيق الضفادع!".

وقد أزالت المعاملة الحسنة التي لقيها على ظهر السفينة شكوك الإمبراطور في نيات إنكلترا نحوه، وكان كلما اقترب من الشاطئ الإنجليزي ازدادت طمأنينته وتضاعف حب الضباط والبحارة له، وكانوا ينادونه بمولاي أو صاحب الجلالة، وكلما سار على ظهر السفينة خلعوا قبعاتهم بكل احترام وإجلال.

وفي الساعة التاسعة من صباح ٢٥ يوليو ألقت الباخرة مرساها في ميناء (تور باي). وما كاد يذيع خبر وصولها حتى احتشدت في الميناء مئات القوارب حاملة رجالاً ونساء من جميع الطبقات، وقد أتوا ليفوزوا بنظرة إلى الرجل الذي ملأ العالم إعجاباً، وقد خرج الإمبراطور إلى ظهر الباخرة مراراً، وكانت النساء تلوحن بمناديلهن في كل مرة ظهر فيها.

وفي مساء ٢٥ يوليو استؤنفت الرحلة، ورست السفينة بميناء بليموث في ظهر اليوم التالي، وفي الحال أدرك الإمبراطور أن في الجو شيئاً غير عادي. إذ لاحظ تغييراً ظاهراً في نفسية الكابتن ميتلند الذي بدا حزيناً مفكراً على غير عادته، وأحيطت السفينة بسياج من القوارب لمنع أي شخص من الاقتراب من السفينة أو النزول منها بدون إذن خاص من أميرال الأسطول، وكان الميناء محتشداً بمئات القوارب، والشاطئ مكتظاً

بالآلاف الذين أتوا من مسافات بعيدة ليلقوا نظرة على الأسير العظيم، وكانوا يحيونه بالهتافات وتلويح المناديل، كلما شاهدوه على ظهر السفينة.

وفي مساء ٣٠ يوليو صعد إلى ظهر السفينة السير هنري بانبوري والأميرال كيت وقرأ أحدهما على الإمبراطور القرار الآتي:

"إن واجب الحكومة الإنجليزية إزاء نفسها وحلفائها أن تقوم بمنع الجنرال بونابرت من القيام في المستقبل بأي عمل يؤثر على السلم العالمي. ولذلك تقرر إرساله إلى جزيرة سانت هيلانة حيث يمضي بقية حياته، وقد يحب الجنرال أن يعلم أن جو الجزيرة صحي، وموقعها البعيد سيساعده على التمتع بحرية التجول في أنحائها دون أن يكون هناك خطر على حياته".

وترك له الاختيار لاصطحاب طبيب وثلاثة ضباط واثنى عشر خادماً يعاملون كأسرى حرب طول مدة إقامتهم معه؛ وقد كلف السير جورج كوكبورن باصطحاب الإمبراطور، ونبه عليه أن ينادي نابليون بلقب (جنرال) وليس كصاحب جلالة أو إمبراطور.

أصغى نابليون إلى هذا القرار بهدوء ووقار دون أن تظهر عليه علامات التأثر، حتى إذا ما انتهى من سماعه قال بكبرياء: "إنني

ضيف إنجلترا ولست أسيرها، لقد أتيت من تلقاء نفسي لأحتمي بالقانون الإنجليزي العادل الذي داست عليه حكومتكم بفعلتها هذه، إنني أحتج بشدة، وأناشد مرة ثانية الشرف الإنجليزي".

ولما انصرف المندوبان التفت نابليون إلى من حوله وقال: "سانت هيلانة! لا أصدق أن هذه الجزيرة النائية الشديدة الحرارة سوف تصبح مأواي الأخير. يا ليتهم سلموني إلى البور بون أو سجنوني في برج لندن أو في إحدى قلاع إنجلترا الحصينة. إنهم يريدون التخلص مني بسرعة، فجسمي لا يتحمل جواً مريعاً كجو جزيرة سانت هيلانة، ثم إنهم ينادونني بلقب جنرال. حسناً! ليكن لقبي كبير أساقفة إذا شاءوا، فإنني بحكم مركزي كإمبراطور كنت رئيس الجيش والكنيسة معاً!".

ولم تلبث سحب الكآبة أن تلاشت عن وجه نابليون، وعاد إليه سروره وحبوره ومرحه، وأخذ يمزح مع أصدقائه، واقترح أن يقضي الجميع وقتهم في المنفى في كتابة مذكراتهم وتاريخ حياتهم.

وازداد عطف الشعب الإنجليزي على الأسير العظيم، فتطوعت اثنتان من كبريات الصحف للدفاع عنه، وتجمع أفراد الشعب كل يوم على الشاطئ وفي القوارب، وكانوا يهتفون له كلما لمحوه على ظهر السفينة، وهو يجيب عليهم بتلويح قبعته المشهورة، وتشجع نابليون إذ رأى وشعر بهذا العطف الشديد من أفراد الشعب، فكتب – بناء على اقتراح محاميه الإنجليزي – الاحتجاج التالي إلى الحكومة الإنجليزية:

"إنني أحتج بشدة على هذا الاعتداء الصارخ على حريتي وشخصي. لقد أتيت إليكم بمحض إرادتي لأكون ضيفكم لا أسيركم، لقد كانت ثقتي كبيرة في عدالة القانون الإنجليزي. فحذار من حكم التاريخ الذي سوف

يتكلم عن غدركم بعدو حاربكم عشرين عاماً ثم سلم نفسه مختاراً في ساعة محنة وانكسار. فإذا بكم تغدرون به وتستغلون ضعفه وتجرده من ملابسه".

الإمضاء

نابليون

الباخرة بلليروفون – في ٤ أغسطس ١٨١٥

وفي اليوم التالي أعلن نابليون إلى قائد السفينة أسماء الذين وقع عليهم اختياره لمرافقته في الرحلة، وهم المارشال برتران، والكونت مونتولون، والكونت لاس كاساس؛ وإزاء تصميم الجنرال جورجود على مرافقة مولاه سمحت له الحكومة بالسفر أيضاً.

وفي مساء ٧ أغسطس صعد إلى ظهر السفينة (بلليروفون) كل من الأميرال كيث والأميرال كوكبورن، وكانت تبدو عليهما إمارات الارتباك والخجل. وأخيراً تشجع الأميرال كيث وقال للإمبراطور في صوت خافت: إن لديه أوامر من حكومته بتفتيش حقائبه وكذلك حقائب زملائه، ومصادرة كل أموال يعثرون عليها حتى لا يستخدمها (الجنرال) في محاولة الهرب من منفاه. وستحتفظ الحكومة بهذه الأموال حتى وفاته. وبعدها تنتقل بكل أمانة إلى الأشخاص الذين يختارهم في وصيته.

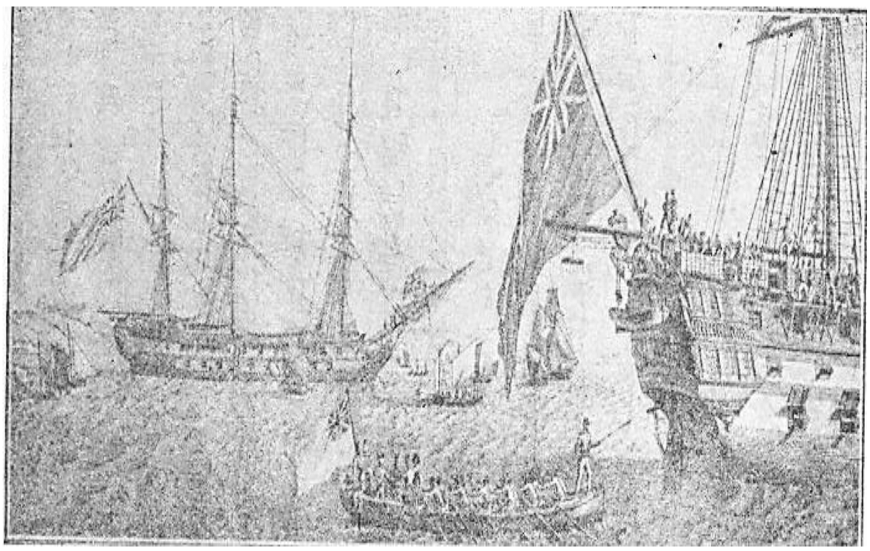
وقد قام الأميرال كوكبورن بمهمة تفتيش الحقائب، وقد أجرى فحصه بكل دقة ولم تسلم منه حتى الملابس الداخلية وثياب النوم، وقد عثر على حوالي مائة ألف فرنك ذهباً، فصادرها إلا مبلغ اثنى عشر ألف فرنك تركها في عهدة خادمه الخاص مارشان ليستعين بها نابليون في نفقاته

الخاصة، ولم يجرؤ الأميرال على تفتيش جيوب الإمبراطور والملابس التي يلبسها، وبذلك سلمت من المصادرة مجوهرات وحوالات مالية قيمتها أربعة ملايين فرنك.

وكان نابليون في أثناء ذلك واقفاً في غرفته ينظر من الشباك مفكراً حزيناً، وبجانبه رفقاؤه خاشعين ساكنين احتراماً لحزنه، وإذ هم في هذا الموقف الرهيب دخل عليهم اللورد كيث وقال بصوت يرتعد من شدة الخجل والاضطراب.

"إن إنجلترا تطلب سيفك أيها الجنرال بونابرت".

فأفاق الإمبراطور من ذهوله ونظر إلى اللورد نظرة فاحصة جعلته يطأطئ رأسه الأشيب خجلاً.



في عصر يوم ٧ أغسطس انتقل نابليون إلى السفينة نورثمبرلاند التي حملته إلى المنفى السحيق ويرى واقفاً في قارب يرفرف عليه العلم البريطاني

ولما وضع نابليون يده على مقبض سيفه لتسليمه، غلب التأثر على اللورد فانسحب نحو الباب قبل أن ينهي مهمته، وعندها ذكره سكرتيره الذي يرافقه أن أوامر الحكومة صريحة في وجوب الحصول على سيف الجنرال، فنظر إليه اللورد غاضباً وقال بحدة:

"ليس هذا من شأنك".

ولما دنت ساعة انتقاله إلى السفينة الحربية نورثمبرلاند – وهي التي اختيرت لتنقله إلى منفاه – ودع قائد السفينة بلليروفون وضباطها وداعاً مؤثراً، شاكراً لهم ما لقيه من حسن المعاملة. ثم تقدم نحو سلم السفينة؛ وقبل أن يغادرها انحنى ثلاثاً للبحارة الذين تجمعوا لتوديعه ولما ركب القارب الذي أقله إلى السفينة نورثمبرلاند ظل واقفاً برهة، انحنى في أثنائها مرة للضابط وأخرى للبحارة، ثم جلس هادئاً وأخذ يتحدث مع اللورد كيث حتى وصل القارب إلى الباخرة ولما صعد إلى ظهرها استقبل استقبالاً رسمياً من البحارة، يليق بمقامه كقائد عظيم، وبعد أن شكرهم جميعاً بكلمات رقيقة، استأذن في الدخول إلى مخدعه.

وهكذا أقلعت السفينة في يوم ٩ أغسطس سنة ١٨١٥ تحمل أسيرها العظيم ومعه حاشيته المكونة من الكونت والكونتس مونتولون

وابنهما، والكونت والكونتس برتران وأطفالهما الثلاثة، والبارون جورجود، والكونت لاس كاساس، والدكتور أوميرا. وكانت تحرسها عشر سفن حربية.

وبينما أخذت السفينة تتحرك وقف الإمبراطور على ظهرها ينظر إلى الأفق البعيد، عله يلقي نظرة أخيرة على فرنسا المحبوبة. وفجأة ارتفعت السحب وظهرت سواحل فرنسا عن بعد، فنظر الإمبراطور في صمت وخشوع إلى الأرض التي عاش وحارب من أجلها. ثم رفع قبعته وانحنى للأرض النائية، وهتف من قلبه قائلاً:

"وداعاً يا فرنسا ... وداعاً يا أرض الشجعان!".

على فراش الموت

ووصل أخيراً إلى الصخرة النائية بعد رحلة طويلة شاقة. وقاسى ما قاسى من الهول والمذلة والهوان حتى رحمه ملاك الموت فاختطفه. والآن أقرأ واتخذ من المأساة موعظة

قلنا إن السفينة التي تقل نابليون إلى منفاه أخذت تتحرك في تؤده، بينما وقف الأسير العظيم على ظهرها ينظر إلى الأفق البعيد، عله يلقي نظرة أخيرة على فرنسا المحبوبة التي عاش وحارب من أجلها وفجأة ارتفعت السحب وظهرت سواحل فرنسا على بعد، فرفع نابليون قبعته وانحنى للأرض النائية وهتف من قلبه قائلاً: "وداعاً يا فرنسا. وداعاً يا أرض الشجعان".

شاهد الضباط الإنجليزي هذا المشهد المؤثر، وسمعوا صيحة نابليون الصادرة من قلب مفعم بالإخلاص وحب الوطن، فخلعوا قبعاتهم وأحنوا رؤوسهم في تأثر عظيم مشاطرين أسيرهم الممتاز عاطفته وحزنه.

وسرعان ما تمالك نابليون شعوره وسار في هدوء وثبات إلى قمرته بالباخرة، وبقي فيها حتى الساعة الرابعة بعد الظهر يقرأ تارة ويتحدث تارة أخرى إلى من يستدعيه من أفراد حاشيته، ثم ارتدى ملابس العشاء وخرج إلى غرفة التدخين حيث قضى نصف ساعة يلعب الشطرنج. وفي الساعة

الخامسة تمام دخل قائد السفينة ودعا الإمبراطور لتناول العشاء. وقضى الجميع أكثر من ساعة بين أكل وشراب وسمر وحديث تناول موضوعات عامة.

واستمر هذا النظام طول الرحلة، ولم يكن من عادة نابليون الجلوس إلى مائدة الطعام أكثر من عشر دقائق، ولكنه اضطر – مراعاة لمن معه – أن يبقى معهم طول مدة تناول الطعام، وكانت تتجاوز أحيانا الساعتين. وكان خادماه الخاصات يقفان خلفه ليقوما بخدمته. وكان نابليون يأكل القليل من الطعام الذي يقدم إليه، ولا يرفض أي صنف منه، كما لم تكن عادته أن يظهر استحسانا أو اشمئزازا من ألوان الطعام التي توضع أمامه.

واعتاد نابليون أن يسير على ظهر السفينة بعد العشاء مدة ساعة أو أكثر في صحبة أصدقائه، وفي أثناء هذه الساعات ينسى نابليون حاضره ويتحدث عن ماضيه ساردا على رفاقه في صراحة وبساطة، ما صادفه في تاريخه الحافل من محن وانتصارات، ودسائس وانكسارات.

وكان على ظهر السفينة مدفع اعتاد نابليون أن يجلس عليه بعد جولته اليومية على ظهر الباخرة فيجتمع حوله كل من انس إليه من البحارة والضباط، وقد يبقى معهم ساعات محدثا إياهم غي بساطة وديمقراطية. وسمى هذا المدفع فيما بعد: "مدفع الإمبراطور".

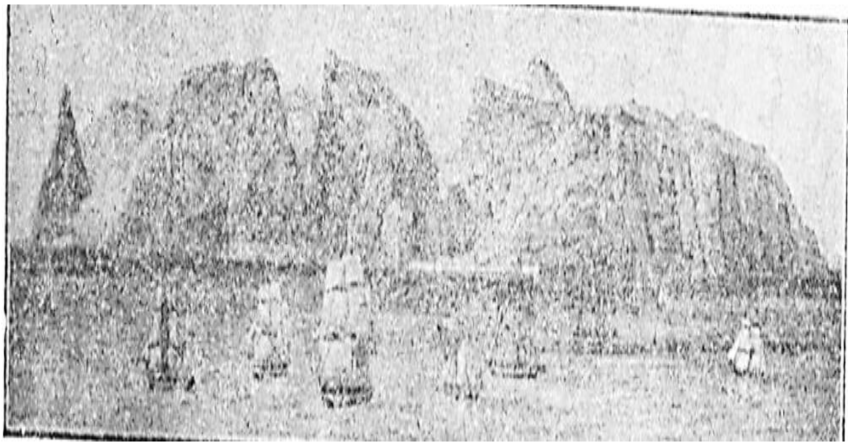
وخطر لنابليون أن يتسلي بإملاء مذكراته على لاس كاساس صديقه، فكان إذا خان وقت الإملاء يفكر هنيهة، ثم ينتصب واقفا، ويذرع الغرفة وهو يذكر الحوادث مفصلة بتواريخها ومكانها وكأنه يقر من كتاب مفتوح.

وحدث في يوم ٧ أكتوبر، أن قابل الأسطول الانجليزي سفينة فرنسية فانتقل إليها احد ضباط الباخرة نورثمبرلاند التي تقل على ظهر النورثمبرلاند، فدهش القائد وهز رأسه في يأس ظاهر وقال: "لقد انتزعتم منا كنزا لا يقدر بثمن، وحرمتمونا من الحاكم الوحيد الذي كان يفهمنا وكنا نفهمه".

وعند غروب شمس يوم ١٥ أكتوبر صاح احد البحارة قائلا: "ها هي الأرض أخيرا" وكان ذلك إيذانا بقرب الوصول إلى الجزيرة. وفي ظهر اليوم التالي ألقت الباخرة مرساها في ميناء سانت هيلانه، وعند ذلك اخذ نابليون ينظر خلال منظاره متأملا هذه الجزيرة القاحلة دون أن يظهر على وجهه أي تغيير فرأي عن بعد تفاصيل الجزيرة البشعة من صخور وتلال بلغت أعنة السحاب، ولمح مجري كبيرا من الماء يمشي خلال الجزيرة، ولفتت نظره كثرة المدافع التي نصبت على كل صخرة وركن من الجزيرة.

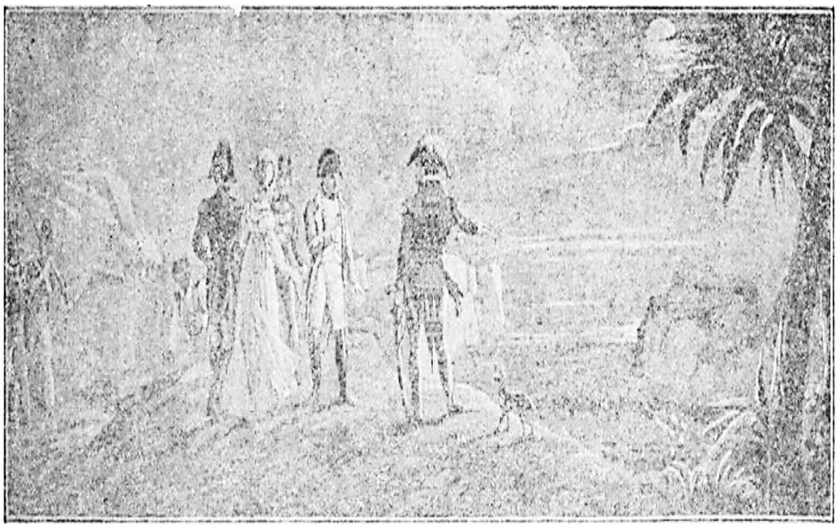
ولقد استغرقت الرحلة مائة يوم منذ رحيل الإمبراطور من فرنسا، وسبعين يوما بعد إبحاره من انجلترا. وتبعد الجزيرة عن أوربا ستة آلاف ميل، وهي في ذاتها صغيرة تبلغ عشرة أميال طولا وستة عرضا، ويحيط بها سور عال من الصخر به ثلاثة منافذ هي الطرق الوحيدة للوصول إلى داخل

الجزيرة، وقد احكم تحصينها حتى لا يتسنى لأي مخلوق الهروب بغير علم الحرس المنبثين في أنحاء هذه الصخرة النائية.



في يوم ١٥ أكتوبر ١٨١٥ وصلت القافلة البحري إلى الصخرة القاحلة

وفي عصر يوم ١٦ أكتوبر تأهب الإمبراطور للنزول إلى سجنه الأبدي، وأرسل في طلب القائد ليشكره على ما لقيه أثناء الرحلة من حسن المعاملة وتوفر أسباب الراحة، وسأله أن يبلغ تحياته إلى جميع الضباط والبحارة الذين تجمعوا على ظهر الباخرة ليودعوه الوداع الأخير، وكانت عيون اغلبهم مغرورقة بالدموع. وكان الموقف أشبه بجنازة الميت، وساد نفس السكون الرهيب الذي يخيم على المشيعين عندما نزل نابليون إلى لقارب الذي اقله إلى سجنه وقبره.



وقف الأميرال كوكيورن الذي رافقه في الرحلة يشرح له تفاصيل الجزيرة حال وصوله إلى جيمس تاون ويرى إلى جانب الإمبراطور بعض أفراد الحاشية

وعندما وصل إلى الجزيرة كانت الشمس قد غابت وراء الأفق. ومشى الإمبراطور في شارع حقير بقرية جيمس تاون، قاده إلى غرفة متواضعة رثة اختيرت ليقضى فيها مدة ريثما يتم إعداد منزل له، وكان بها سرير حديدي بسيط في مظهره، عليه مرتبة ووسادة، وفي أركانها بعض قطع الأثاث التي لا تليق بمقام الضيف العظيم، ووقف عند بابها وعند نوافذها حرس مدجج بالسلاح.

رأي نابليون كل ذلك، فارتمى على كرسي قريب منه، واخذ يفكر في هدوء وحزن ثم رفع رأسه في تثاقل وأمر جميع من بالغرفة بالخروج، ثم أطفا

الأنوار وارتمى على فراشه يلتمس الراحة والسلوان في الوحدة القاتلة، وراح يفكر ويفكر ...

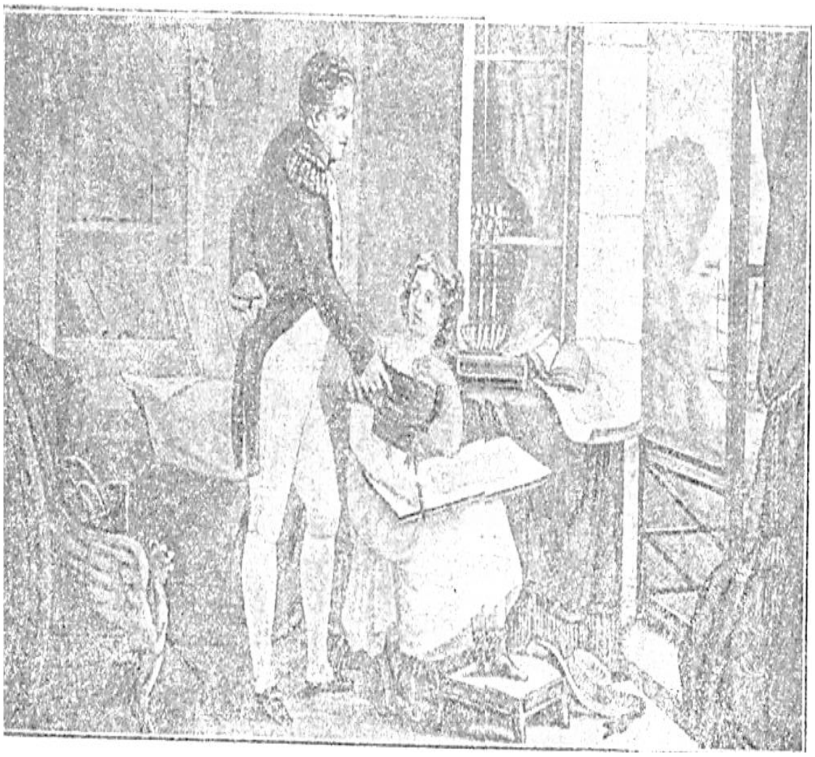
وهكذا قضى نابليون الليلة الأولى في المنفى، ولا يعلم إلا الله ماذا جال بخاطره خلالها .. !

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، امتطى صهوة جواد في صحبة بعض رفقائه وسار الجميع نحو قرية (لونجوود) التي تبعد بمسافة ثلاثة أميال عن جيمس تاون، وكان الغرض من الرحلة معاينة المنزل الذي اختارته الحكومة الانجليزية ليكون مقام الإمبراطور الدائم بالجزيرة. ولشد ما دهش نابليون عندما رأي بقعة جرداء قاحلة يتخللها مجرى ماء صغير ويقوم في وسطها كوخ حقير كان فيما مضى يستعمل كزريبة للبقر، ثم أجريت فيه بعض الإصلاحات التي جعلته صالحا للسكني، وكانت ميزته الوحيدة انه يقع في مكان من الجزيرة اقل حرارة وألطف جوا.

وعاد نابليون من رحلته محطم النفس كسير الفؤاد، وإذ هو في الطريق شاهد منزلا ريفيا صغيرا في بقعة اسمها "البرير" فسأل عما إذا كان في الإمكان الإقامة فيه حتى يتم إعداد منزله في (لونجوود)، وكان يملك هذا المنزل رجل طيب القلب يدعى مستر بالكومب، فقبل عن طيب خاطر أن يترك إحدى غرف منزله – المكون من خمس غرف – خصيصا للإمبراطور. ولكن هذا رفض أن يضايقه، وفضل أن يشغل ملحقا صغيرا بحديقة المنزل مكونا من غرفتين تعلوا إحداهما الأخرى، وهناك قضى نابليون شهرين يصحبه مارشان خادمه الخاص ولاس كأساس وولده.

وكانت هذه الإقامة اسعد فترة قضاها نابليون في منفاه. واندمج اندماجا كليا مع عائلة المستر بالكومب المكونة من زوجته وبنتين وولدين، وكان يقضى معظم النهار في صحبتهم يضحك ويمزح ويطرى مسز بالكومب

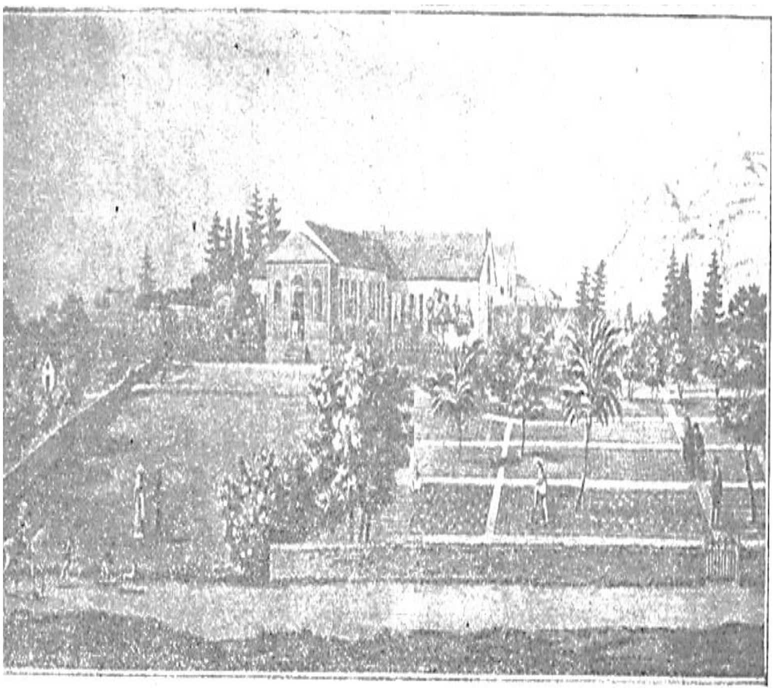
مظهرا إعجابه العظيم بجميل تنسيقها للمنزل والحديقة، فإذا جن الليل عاد إلى غرفته بسيطة الأثاث، وكان لها بابان ونافذتان، ولم يكن للنوافذ ضلف خشبية ولا ستائر تحجز ضوء الشمس أثناء النهار، وكان لاس كاساس يحكم إغلاق النافذتين كل ليلة بعد أن يأوي مولاه إلى فراشه، ثم ينسحب في هدوء هو وابنه إلى الطابق العلوي، أما مارشان والخادم الأخر فإنهما كانا يلتفان بعباءتيهما وينامان على عتبة بابا الغرفة التي قدر أن يشغلها سيدهم الذي خدماه أبان سطوته وسلطانه، وكان يحيط بالمنزل حرس مسلح ليحول دون هروب الأسير.



نابليون يتحدث إلى بتسى بالكومب أثناء ضيافة عائلتها له ريثما إعداد المسكن المناسب لإقامته في لونجوود

وفي ١٠ ديسمبر، انتقل الإمبراطور وحاشيته إلى (لونجوود)، وكان قد تم إعداد سجنه المكون من بضع غرف صغيرة، ورأي نابليون بعد فحصها أنها لا تكفي لإيواء جميع أفراد حاشيته. فنصب خيمتين في وش المنزل إحداهما للجنرال جور جود، والأخرى للدكتور أوميرا طبيبه الخاص. أما الجنرال برتران وزوجته وولده، فقد سكنوا منزلا صغيرا على مسيرة ميل من بيت مولاهم.

وكانت الرقابة شديدة على الأسري، فكان يحرسهم أبي ساروا جنود يحملون بنادقهم، وحرم عليهم الاتصال بالأهالي أو محادثتهم، ومنعوا من الدنو من شاطئ الجزيرة. وكانوا يرسلون الاحتجاج تلو الأخر إلى الحاكم دون جدوى. وفي ذات يوم زار الإمبراطور قائد إحدى السفن التي صحبته إلى منفاه، وكان على وشك الرحيل إلى أوروبا، وسأله عما إذا كان في إمكانه أن يؤدى له أي خدمة، فتدفقت عبارات الاحتجاج من فم نابليون على المعاملة السيئة التي يلقاها هو وحاشيته من أولى الأمر بالجزيرة، ورجاه أن يبلغ الوزراء الانجليز شديد احتجاجه وعتابه، وأملى على لاس كاساس مذكرة جاء فيها ما يأتي:



منزل نابليون وحاشيته بلونجوود. وقد أقام فيه ابتداء من ١٠ ديسمبر سنة ١٨١٥

"إن الإمبراطور يرجو أن يسمع برجوع البريد أخبارا عن زوجته وابنه ويريد أن يتأكد إذا كان هذا الأخير لازال على قيد الحياة. وهو ينتهز هذه الفرصة ليسجل شديد احتجاجه على المعاملة الشاذة التي يلقاها.

"ولقد وضع الإمبراطور نفسه بمحض إرادته تحت حماية القانون الانجليزي وكان في إمكانه أن يحتمي بملك أخر كالإمبراطور فرانسوا والد زوجته مارى لويز ولكنه وضع كل ثقته بدون تبصر في عدالة الأمة الانجليزية فكان ما كان.

"إن الإمبراطور ليس أسير حرب كما تزعمون، وإذا سلمنا بهذا الأمر فان لأسير الحرب حقوقا ثابتة عند جميع دول العالم المتمدينة، ويطلق سراحه مجرد انتهاء الحرب.

"إذا كان وزراء انجلترا مصممين على استمرار هذه المعاملة الشاذة، فان الإمبراطور يكون سعيدا لو أصدروا حكام بإعدامه في الحال، فالموت أحب إليه من حياة هي الجحيم بعينه".

وكان نابليون في ثورة غضبه يملى على أفراد حاشيته احتجاجات شديدة اللهجة ليحملوها إلى الحاكم، فيؤجلوا إرسالها بضعة أيام حتى تهدا ثورته. ثم يسألونه إذا كان مصمما على احتجاجه فيثور في مبدأ الأمر لعدم إطاعتهم أوامره ثم لا يلبث أن يعود إليه هدوءه فيقول "انتم محقون. إن مركزي وكرامتي يحتمان على الصمت والصبر، ويجب أن اترك أمر الاحتجاج لكم وحدكم".

وحاول نابليون أن يكتب خطابا خاصا إلى الملك جورج الرابع وأرسل إلى حاكم الجزيرة يستأذنه على لسان الجنرال برتران. فأصر الحاكم على أن يقرا الخطاب قبل إرساله، فرأي نابليون أن ذلك محط لكرامته، فعدل عن الفكرة.

وفي ١٧ ابريل سنة ١٨١٦، وصل حاكم الجزيرة الجديد السير هدسن لو، ولما قدم إلى الإمبراطور ا اشمأز من منظره، وقال بعد انصرافه:

" إن شكله ووجهه يبعثان القشعريرة في نفسي، ولكن يجب أن لا نتسرع في الحكم، فقد تكون أخلاقه بعكس ما ينبئ عنه وجهه البشع".

ولم يصدق حدث نابليون هذه المرة، فانه لاقى على يدي هذا الحاكم أهولا نفسية جعلت حياته جحيما لا يطاق، وعجلت بنهايته المحزنة على يدي شخص قاس وضع نصب عينيه الانتقام للإمبراطورية البريطانية ممن دوخها عشرين عاما طوالا. وكانت أيامه الأخيرة سلسلة من الأحزان والنكبات النفسية.



نابليون وهو جالس على صخرة في الجزيرة يملى مذكراته

ومرت الأعوام وحالة الإمبراطور النفسية والمرضية تزيد سوءا يوما بعد يوم وخاصة بعد وصول الحاكم الجديد.

وكانت تقارير شهري نوفمبر وديسمبر من عام ١٨١٨ مليئة بتفاصيل تحوى صنوف العذاب والآلام والمذلة. وبلغ اليأس بالإمبراطور مبلغا عظيما حتى انه رضخ أخيرا في اليوم العاشر من شهر يناير عام ١٨١٩ لمشورة أصدقائه أن يزروه الدكتور ستوكا جراح البارجة الانجليزية (كونكرر أي القاهر). وكان نابليون قد صمم ألا يرى طبيبا انجليزيا منذ أن أمر الحاكم بترحيل طبيبه الخاص اوميرا. فلما ناظره الدكتور ستوكا وجده في

شاد حالات الألم وانحطاط القوى الجسيمة. وقد زاره مرتين فقط وجد نفسه بعدهما مضطرا لطلب إعفائه من عمله لان الحاكم وحاشيته كانوا يتدخلون في علمه تدخلا أقلقه وأزعجه. فزار الإمبراطور يوم ٢٠ يناير وبرر له اضطراره إلى الانسحاب وأصبح نابليون مرة ثانية دون طبيب يعنى به ويشرف على حالته الصحية.

ومضت التسعة الأشهر التالية في عذاب مستمر ولم يأل حاكم الجزيرة جهدا في أن ينغص على المريض حياته لدرجة أن نابليون أمر بأن يحكم إغلاق الأبواب ولا يسمح لأي شخص من طرف الحاكم أن يزوره. وقد كتب الإمبراطور عن هذا في مذكراته ما يأتي:

" في يوم ١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦ من شهر أغسطس عام ١٨١٩ حاول بعضهم أن يقتحم داري لمرة الأولى منذ مجيئي إلى الجزيرة.ولقد أصدرت أوامري بغلق جميع الأبواب وأحكام قفلها. ولقد سبق أن أنذرت أولى الأمر أن انتهاك هذه الحرمة الضيقة المكونة من ست غرف صغيرة لن يتم ألا إذا ساروا على جثتي. لقد مضى على عامان وأنا أقاسي من مرض الكبد المتفشي في هذه الجزيرة. وقد استبعد الدكتور أوميرا في يوليو عام ١٨١٨ والدكتور ستوكا في شهر يناير ١٨١٩ ومنذ ذاك الوقت وأنا أقاسي أبشع الآلام دون أن يكون على مقربة منى طبيب يداويني ويخفف من آلامي. وبينما أتقلب على فراشي من شدة آلام الأزمة الكبدية الأخيرة التي مضت عليها ستة أيام وليال دون تراخ أو هوادة إذا

بي أفاجأ بهذا التدخل الذي لا معنى له والذي يتنافى مع ابسط قواعد الإنسانية".

وأخيرا وافقت الحكومة البريطانية على أن يرسل أصدقاء بونابرت في أوروبا طبيبا من قبلهم، ووقع اختيارهم على الدكتور انتو ماركي الذي وصل إلى الجزيرة في يوم ١٩ سبتمبر من العام نفسه.

وقد جاء معه اثنان من رجال الكنيسة لان نابليون ألح أن تقاوم الصلوات والمراسم الدينية في مملكته الصغيرة بالجزيرة. وكان احدهما وهو الأب نونافيتا متقدما في السن بينما كان الأخر وهو الأب فيجنالي شابا في مقتبل العمر. وكانت للإمبراطور معهم صولات وجولات في السياسة والدين مما روح عن نفسه المكروبة وواساه في محنته. وفي ٢١ سبتمبر استقبل نابليون طبيبه الجديد للمرة الأولى، وكان ذلك في الساعة الثانية والربع، وعندما دخل الطبيب الغرفة وجدها مظلمة وكان المريض راقدا على سرير في احد أركان غرفة حقيرة الأثاث فلم يره في مبدأ الأمر لولا انه سمع صوتا خافتا رقيقا يناديه ويدعوه للجلوس. ثم اخذ نابليون يسأله بدقة عن مولده وعائلته ومؤهلاته الطبية والدوافع التي جعلته يقبل المجيء إلى هذه الصخرة النائية ثم اخذ يسأله عن أخبار أصدقائه القدماء في أوروبا.

وفي اليوم التالي عاد الطبيب مريضه حوالي العاشرة صباحا. وكان الإمبراطور لا يزال ملازما فراشه بعد أن مضى ليلة حافلة بالآلام والأوجاع. وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث وقفت عربة بباب المنزل، وكانت محملة بالصناديق والكتب الواردة للإمبراطور من الخارج. ولما أمر

بفتحها وجدها مليئة بالكتب والمجلدات فنظر إليها بونابرت نظرة فاحصة وقال لمن حوله "ليست الكتب هي الشيء الوحيد الذي يبحث عنه والد في رسالة واردة من الخارج. انظروا داخل الصندوق وافحصوه جيدا فلابد أن هناك شيئا أخر أحب إلى قلبي من كل هذا .. " وقد صدق حدس الإمبراطور لأنهم وجدوا صورة لابنه بين الكتب، فما رآها حتى انهارت الدموع من عينيه ونظر إليها طويلا ثم قبلها بحرقة وشوق وقال وهو يبكي: "ولدي العزيز ! ستكون خير خلف لوالدك إذا قسم لك أن تعيش رغم دسائس أعدائي ... ".

وأمضى الإمبراطور ليلته ساهرا يقرا الجرائد والمجلدات التي وردت من الخارج فلما دخل عليه الطبيب في الصباح وجده منهكا متعبا. وكان لا يزال ممسكا بصورة ولده فناولها إلى طبيبه قائلا: "أرجوك أن تضعها على رف المدفأة بجانب صورة والدته ماريا لويزا. ألا ترى الصورتين الأخريين ... ؟ أنهما للحبيبة جوز يفين... م هي عزيزة إلى قلبي .. لكم أحببتها ولازلت أحبها .. إن صورتها وذكراها يؤنساني في وحدتي المؤلمة .. ألا ترى بعينيك مظاهر العظمة والأبهة التي تحيط بي في هذا الركن الحقير... ! شمعدانان بسيطان.. فنجانان مذهبان .. مقص صغير.. كوبة ماء .. زجاجتان من ماء الكولونيا... سرير حديدي... هذا كل ما خرجت به من عظمة الماضي .. أين هذا من قصور التويلرى والأليزية ... ولكن كل هذا يهون عند ما أتذكر أن ما أضحية ليس إلا حبا في فرنسا وأهلها .. ".

وعند ما جال الطبيب ببصره في الغرفة لاحظ آثار الرطوبة الشديدة على جدرانها لدرجة أتلفت جميع الأبسطة المزركشة التي غطيت بها الجدران. وكان مرسوما على احدها صورة نسر كبير فنظر إليه نابليون وقال وهو يبتسم في مرارة: "أيها النسر العزيز. كان خليقا بك أن تظل محلقا في الفضاء الواسع، لولا أن الذين ظللتهم بجناحيك خذلوك ونتفوا ريشك.".

ومرت الأيام ومضت أربع سنوات وآلام بونابرت في ازدياد، وبدا سنته الخامسة وهو يشعر بضعف جسمي وانحطاط معنوي شديدين. وفي يوم ١٨ نوفمبر شعر بانتعاش على غير عادة رغم ضعفه وبينما هو يمشي مع طبيبه في حديقته الصغيرة التفت إليه فجأة وقال: "بماذا تشير على يا طبيبي العزيز. أما من وسيلة ألجأ إليها لأبعث النشاط إلى أطراف جسمي." فأجابه الطبيب "يا حبذا لو حاولت ممارسة أي نوع من الرياضة. ما رأي جلالتكم في حرث الأرض وتعهد هذا البستان الصغير بنفسك؟" فظهرت علامات السرور على وجه نابليون وصاح قائلا: "يا لها من فكرة صائبة. سوف أبدأ من باكر .. ".

وفي صباح اليوم التالي أرسل في طلب طبيبه وقابله عند بابا المنزل والفأس في يده وقال له وهو يضحك: "ها هو مريضك يطيع أوامرك وينفذها حرفيا ودون تردد. إنني اعتقد أن الفأس والمعول خير من أقراصك وأدويتك المقيئة التي لن أعود إليها ثانية .." ثم بدا يحرث الأرض بهمة سرعات ما تخاذلت بعد دقائق والتفت إلى الطبيب وقال: "إنها عملية شاقة

حقا – أراك تضحك مني ولكن مهلا يا عزيزي فسوف أروض نفسي وسترى أني سأحذق هذه الرياضة الجديدة عما قريب .. ".

وسرعان ما اعتاد جسم الإمبراطور ويداه الناعمتان الرياضة الجديدة وأشرك معه في العمل جميع رجال حاشيته ورفضت السيدات القيام بنصيبهن رغم إلحاحه وإغرائه. وتحولت الحديقة الجرداء إلى بستان منسق .. فهنا حوض. وهناك قناة .. وزرعت الأشجار حول المنزل لتعكس عليه ظلها وترطب من حرارته المرهقة .. وسمع الحاكم بمجهودات أسيرة في سبيل رفاهية لونجوود فحام حول المنزل وشاهد الطبيب واقفا وحده في الحديقة فناداه في احتراس وقال له: "هل أنت الذي أشار على الجنرال بونابرت بالقيام بهذا المجهود الشاق؟" فأجاب الطبيب "نعم" فهز الحاكم كتفيه وقال: "انه مجهود ضائع. ألا تعلم أن كل هذه الشجيرات سوف تموت. ولن تنمو واحدة منها مهما بذلتم من جهود". ثم انصرف ولما قص الطبيب تفاصيل الحديث على نابليون صاح هذا قائلا: "يا للوغد .. ألا يريد أن يتركني وحدي دقيقة واحدة. إنني اعرف انه يتمني موتي وينتظره بفارغ الصبر. ولقد طالت حياتي لدرجة أزعجته وأقلقته ..

ولكن ليقر عينا فهذا الجو الخانق سوف يقضي على عاجلا .. وعندها يستريح بال سبحاني العزيز .. ".

وأراد الإمبراطور ذات يوم عقب هذا الحادث أن يسخر من سجانه فأوعز إلى الأب فيجنا لي أن يرتدي إحدى حلله ويمتطى صهوة جواده ويمسك بمنظاره ويتجول بحصانه متظاهرا بأنه يستكشف ما حول منطقة

الحرام، وسرعات ما قامت الدنيا وقعدت وجاء الحاكم مسرعا إلى لونجوود ولما وجد انه لا معنى للضجة القائمة انسحب في هدوء وقال للطبيب وهو ينصرف: قل للجنرال إنني فهمت النكتة وإنني لن اقبلها مرة ثاني "فلما سمع الإمبراطور بذلك ضحك وقال: الواقع أننا ضايقناه كثيرا بهذه المداعبة. إنني أرثى له".

٢٢ أكتوبر سنة ١٨٢٠: ها قد مضت على الإمبراطور خمس سنوات وهو يعاني الآلام القاسية في منفاه النائي بسانت هيلانه حيث تمر الأيام والأسابيع ببطء قاس، ليس اقسي منه إلا الزوابع والضباب والأعاصير التي لا تنقطع معظم أيام السنة.

شعر الإمبراطور بتحسن قليل في صحته، فنادي طبيبه الخاص الدكتور انتو ماركي([١]) وقال له، "إني أعاهدك يا دكتور متى من الله على بالشفاء، أن أرسلك إلى أوروبا لتتم أبحاثك ودراساتك، فحرام على أن أربط مستقبلك بمستقبلي وادعك تقضي حياتك على هذه الصخرة المشئومة. لقد أخبرتني على ما اذكر انك لم تر فرنسا بعد، فإذا أتيحت لك الفرصة، فانك سترى هناك التماثيل التي غمرت بها أحياء فرنسا أيام سطوتي وسلطاني. آه لقد مضت هذه الفترة كوميض البرق، ولكني اعتقد

([١]) جاء انتو ماركي إلى الجزيرة موفدا من قبل والدة الإمبراطور وأصدقائه في أوروبا بعد أن عزل حاكم الجزيرة طبيبه الخاص أوميرا لأنه أبي أن يكون جاسوسا له. ولما أمر بترحيله عام ١٨١٨ رفض نابليون أن يتعاون مع أي طبيب من قبل الحاكم وفضل أن يتحمل الآلام الهائلة التي كان يقاسيها على أن يكشف عليه طبيب يعينه سجانه. وكان الحاكم يقول: "إذا كان نابليون يرفض مناظرة أطبائي فذلك لأنه متمارض يخشي أن تنكشف حيلته".

وقد أحسن الحاكم استقبال انتو ماركي في زيارته الأولى ومضي معه وقتا طويلا حاول فيه إقناعه أن مرض بونابرت لم يكن إلا خدعة وتمثيلا ..

أني فعلت فيها أشياء نافعة، فلقد خلدت الثورة الفرنسية في القانون الذي وضعته والذي سيكون نبراسا تهتدي به الأجيال القادمة، ودخلت ايطاليا فوجدت أن مواصلاتها مع باريس شاقة متعبة، فشققت طريقا في وأدى الرون تطلب نفقات ومشاق هائلة، إذ كان علينا أن نخترق طبقات صلبة من الجرانيت تردد أمامها الرومان القدماء عن تنفيذ هذا المشروع".

وهنا شعر الإمبراطور بوهن فسكت عن الكلام.

٢٦ أكتوبر: قام الإمبراطور من مقعدة رغم ضعفه واخذ يسير في بطء نحو حوض صغير بناه بنفسه، واخذ يتسلى بمراقبة اسماك صغيرة حمراء اللون وهي تلعب في الماء، وكان يرمى لها قطعا صغيرة من الخبز ويبتسم في تثاقل لرؤيتها وهي تلتهم الخبز في نشاط عجيب، وكأنها أعادت لذا كرته أيام سطوته ونشاطه حينما كان جذوة دائمة الاتقاد. وفجأة لاحظ أن بعضها ميت والبعض الأخر كسول على غير عادة، فنظر إليها وقال: "ألا ترون أن كل ما أحب يسبقني إلى مصير أنا إليه سائر. إن ملاك الموت أو شيطانه قد انس إلى هذا المكان، وها هو يسلي نفسه بقتل الحشرات والأسماك قبل أن يسطو على الرأس الكبير". واخذ الإمبراطور منذ ذلك الحين يتردد يوميا ليطمئن على أصدقائه الصغار ويلح على طبيبه، ليكشف سر موتهم الفجائي. وفكر الطبيب في تحليل الماء، ولكن الإمبراطور وجد أن هذا إجراء بطئ لا يسعف. وكان يرغمه على الذهاب عدة مرات في اليوم ليرى إذا كانت الأسماك بخير. واخذ الطبيب يقدح زناد فكره، عله يتوصل إلى اكتشاف يشفى به غليل الإمبراطور. وأخيرا وجد أن المادة التي

استعملت في بناء قاع الحوض تحتوى على نسبة كبيرة من النحاس، كانت كافية ليتسمم بها السمك. وفي الحال نقلت الأسماك الحية إلى برميل من الخشب، فكان ذلك سببا في إنقاذ البقية الباقية من السمك الذي صار هوية من كان ينازل الإبطال ويداعب بالسيف والنار.



صورة لنابليون أخذت في ٢٤ يوليو ١٨٢٠ رسمها ضابط انجليزي

١٩ نوفمبر: كان نوم الإمبراطور مضطربا في الأيام الأخيرة وكان ألم الكبد يعاوده كل ساعة، وكانت قواه قد انحطت ونشاطه قد غادره. فاخذ يناجي طبيبه قائلا: "ما ألذ الراحة يا طبيبي العزيز إن رفاهية الفراش دونها أي عرض في الوجود. إيه، ما أعظم التغيير الذي طرا على نفسي وعقلي تفكيري! أيستطيب الفراش والراحة من كان مثال النشاط ومن كان تمضى عليه ليا بأكملها لا يغمض له فيها جفن ... بل يفكر ويفكر ... ويعمل ويعمل ... ولطالما أمليت أوامري على أربعة أو خمسة أشخاص مختلفين في وقت واحد ولكني كنت إذ ذاك نابليون بونابرت، أما الآن فإنني لا شيء لقد غادرتني قواي ومواهبي وأعصابي، وأصبحت الحياة أياما تقضى لا عمل فيها ولا أمل ... بالله يا طبيبي العزيز لا تلح على في اخذ الدواء فقد غلب الداء ولن يغلب".



الدكتور انتو ماركي الطبيب الخاص لنابليون في المنفي

١٦ ديسمبر: اشتد ضعف الإمبراطور، وف الصباح عقب ليل قضاه في ألم مستمر حال مغادرة الفراش، ولكن قواه خانته فارتمى على مقعد قريب واخذ يتمتم قائلا "حتى رجلاي تخونايي! رباه ماذا بقي مني إذن؟ هيكل عظمي بلا حركة ولا تفكير! حقا إن لكل شيء نهاية ... وها هي

نهايتي تقترب، وعلام أسف ولم يبق لي في الحياة غاية، ولم يعد لبقائي في الدنيا فائدة؟".

وازدادت الحالة الصحية سوءا خلال شهري يناير وفبراير سنة ١٨٢١ وأخذت الأيام تمر كالسنين أو قل كالأجيال طولا. فالألم والمرض المستمران على حالهما والضباب والزوابع والأمطار لا تنقطع. وقد حل نابليون يأس شديد وخاصة عندما قرأ في الجرائد عن وف٥اة شقيقته إليزا.

٢٩ مارس سنة ١٨٢١. أخذت النهاية تقترب والإمبراطور ينتظرها باطمئنان وثبات عجيبين. وفي ذلك اليوم خاطب طبيبه قائلا: "إنني ارفع راية العصيان في وجه كل من يحاول إرغامي على تعاطي أي دواء. إنني شخص طالما واجه الموت بلا خوف وتعرض لأشد الأخطار هولا، ولكن ليس ابغض إلى نفسي من أن تمس شفتي كاس الدواء؛ لعلك تقول عني في نفسك إنني طفل مدلل ... ليكن" ثم التفت إلى مدام برتران وقال: "خبريني بربك كيف تطاوعك نفسك على ابتلاع الحبوب والأدوية العديدة التي يصفها لك طبيبنا طيب القلب؟" فأجابت: "إنني أتناولها لان أوامر الطبيب مقدسة ويجب إطاعتها، واني اصح جلالتك أن تحذو حذوي". فهز

رأسه في ضعف وقال: إنني إذن الوحيد بينكم الذي يثور في وجه الطب والطبيب. سوف أطيعك يا مدام برتران

وأتناول الدواء". قال هذا ثم تناول الفنجان والتهم الجرعة دفعة واحدة ([٢]).

٣١ مارس: كان حاكم الجزيرة السير هدسون لو قد كلف احد الضباط أن يقدم إليه تقريرا يوميا، بأنه رأي (الجنرال بونابرت) كما كان يسميه، إمعانا في الإذلال وتجاهلا لعظمة ماضي هذا الأسير الكبير. وقد قام الضابط بواجبه منذ وطئت قدما نابليون ارض الجزيرة، وقد لازم الإمبراطور فراشه منذ ١٧ مارس ولم تشأ عواطف الضابط الرقيقة أن ترغمه على إطاعة أمر رئيسه، واقتحام غرفة المحتضر العظيم ليقدم تقريره اليومي بأنه رأي (الجنرال بونابرت). فهاج السير هدسون وماج، وسار تتبعه حاشيته إلى منزل بونابرت، واخذ يحوم مزجرا مهددا الضابط بأقسى أنواع العقاب إذا لم ينفذ الأوامر الصادرة إليه. فذهب الضابط إلى الجنرال مونتولون، وسأله أن يساعده في محنته دون أن يكون في ذلك إيذاء لعواطف الإمبراطور. فساعده الجنرال، بان جعله ينتظر في الخارج بجوار النافذة. وفي اللحظة التي قام فيها نابليون من سريره لقضاء إحدى الحاجات مستندا إلى ذراع طبيبه، أزاح الستار قليلا متظاهرا بأنه ينظر إلى الخارج، وبذلك أتاح للضابط أن يسرق نظرة إلى الغرفة المظلمة والى

([٢]) أكثر انتو ماركي من وصف المقيئات والمسهلات حتى نفذ صبر نابليون منها. وفي ذات يوم اقترح وضع حراقة على منطقة الكبد سببت للإمبراطور ألما شديدا فصاح في وجهه عند زيارته له في صباح اليوم التالي: "أنت جاهل وأنا اجهل منك لتنازلي بقبول علاجك .. ألا ترى في تعذيب (هدسون لو) ما يكفيني" .. وكان انتو ماركي يدرك مقدار ثقة بونابرت في كفاءته وكثيرا ما طلب مغادرة الجزيرة ثم يعود فيرضي بالبقاء حتى عين الحاكم الطبيب أرنوت وكان أكثر كفاءة وحاز ثقة نابليون لأنه قام به بواجبه في حدود المهنة والضمير والشرف. فتعاون مع انتو ماركي في العناية بالمريض العظيم.

الإمبراطور، وأمكنه تقديم تقريره اليومي لرئيسه المتعجرف. ولكن هذا لم يرضه بل هدد بأنه إذا لم يسمح للضباط بالدخول يوميا إلى غرفة (الجنرال بونابرت) فانه سيأتي بنفسه ومعه حاشيته ويقتحم الغرفة غير آبه بالعواقب. وعبثا حاول الجنرال مونتولون أن يثنيه عن عزمه، مكررا على مسمعه الواجب الإنساني نحو مريض يحتضر، بغض النظر عن شخصيته. فلم يعره الحاكم أي اهتمام، واقتحم المنزل، ولكن الدكتور انتو ماركي كان قد سمع الضجة التي في الخارج، فخرج وهو ثائر على هذا الأسنان الذي قد قلبه من صخر ولما التقت عيناه بعين الحاكم صاح الأخير بكبرياء "أين الجنرال بونابرت".

فأجاب الطبيب: " الجنرال بونابرت غير موجود هنا".

فقال الحاكم: " ومتى اختفى، وأين؟"

فأجاب الطبيب بهدوء: "إن أخر مرة سمعت فيها باسم الجنرال بونابرت كانت في معركة أبو قير، التي هزم فيها حلفاءكم ورماهم في البحر، وكانت معركة فاصلة حاز فيها نصرا حاسما. ومنذ ذلك الوقت لم اعد اسمع بالجنرال بونابرت، بل أصبح الإمبراطور بونابرت ملء القلوب والأسماع، ترتعد له كل الفرائص وتتألب عليه كل الدول التي تخشى بأسه. فهلا تركت رجلا هذا مجده وماضيه يموت في هدوء؟"

فقال الحاكم: "أراك لازلت تتكلم عن (الإمبراطور)"

واحتدت المناقشة بين الطبيب والحاكم، وكاد يحدث مالا تحمد عقباه، لولا أن تدخل الكونت برتران، والجنرال منتولون، وتوسطا لدى الإمبراطور لكي يقبل حلا وسطا، وهو: أن يزوره يوميا من قبل الحاكم طبيب يثق فيه الطرفان وهو الدكتور أرنوت، وهذا كان عليه أن يقدم تقريرا بدل الذي كان يقدمه الضابط.



هدسون لو

٢ ابريل: أعدت الحكومة البريطانية منزلا مريحا للإمبراطور ليستعيض عنه بالمنزل الذي يقيم فيه. وهو منزل رطب اتخذت منه الفيران عشا ووجدت العيش فيه سهلا وألح الدكتور أرنوت في نقل الإمبراطور في الحال. وكان الأخير ينصت إلى أرنوت وهو يتكلم دون أن ينبس ببنت شفة، ولما انتهى من كلامه التفت إلى طبيبه انتو ماركي وقال: "هل ترى مثل رأيه؟".

فأجاب: "كلا يا مولاي إن درجة حرارتكم مرتفعة وقد يكون لنقلكم من منزل إلى منزل أوخم العواقب". فالتفت الإمبراطور إلى الدكتور أرنوت وقال: "ها قد سمعت بإذنيك. يجب ألا نفكر بعد الآن فيما عرضته على"، وحاول أرنوت أن يؤثر عليه، ولكن إلحاحه لم يؤد إلى نتيجة.

٦ ابريل: مضت عشرون يوما منذ خلق الإمبراطور ذقنه للمرة الأخيرة وقد حاول الطبيب أن يقنعه بالسماح لأحد خدمه بان يحلق له ذقنه. ولكنه رفض باتا في أول الأمر. ولكن لما طالت لحيته بدرجة أزعجته، بدأت قناته تلين وأفضي لطبيبه برغبته، فاقترح هذا أن يرسلوا في طلب حلاق ليقوم بالمهمة. ففكر الإمبراطور طويلا ثم قال: إنني دائما كنت احلق ذقني بيدي، ولم اسمح حتى الآن ليد إنسان أن تمس وجهي، ولكنني الآن لا أقوى على علم شيء وليس على إلا الإذعان والخضوع لما تأمر به ... ولكن، لا لا ... لن ادعهم يقولون إنني بلغ بي الضعف والوهن حدا سمحت معه لمخلوق من البشر أن يمس وجهي ولن ينال هذا الشرف إلا أنت".

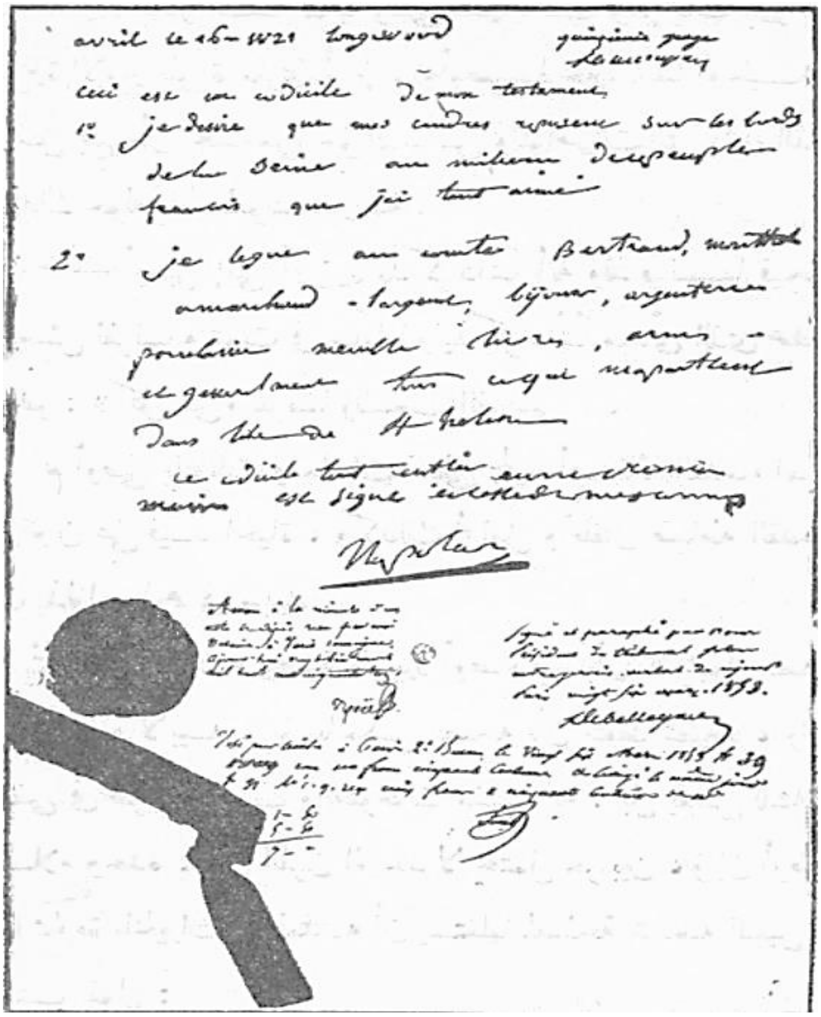
فاحتج الطبيب بلطف، قائلا: انه كان يتمنى أن يفعل ما يأمره به الإمبراطور ولكنه لا خبرة له مطلقا بهذا الموضوع، ونصح جلالته بان يرضخ لحكم الظرف القاسي ويسمح لشخص متمرن أن يحلق له.



صورة أخذت قبل موته بشهرين

فأجاب الإمبراطور: حسنا ... ليكن ما تريد. والأمر لله".

١٦ ابريل: أمضى الإمبراطور الصباح كله في كتابة وصيته، وقد ضمنها ما يأتي:


avril le 16 – 1821 Longwood

ceci est un codicile de mon testament

1° je desire que mes cendres reposent sur les bords de la Seine au milieu de ce peuple français que j'ai tant aimé

2° je legue au comte Bertrand, Marchand l'argent, bijoux, argenterie, porcelaine, meubles, livres, armes et generalement tout ce qui m'appartient dans l'isle de St Helene

ce codicile tout entier écrit de ma main est signé et scellé de mes armes

Napoleon

وصية نابليون مكتوبة بخط يده وممهورة بإمضائه

١- أوصي بان ادفن على ضفاف السين لأشعر في آخرتي بأنني بين الشعب الفرنسي الذي أحببته من كل قلبي.

٢- أغادر هذه الدنيا وقلبي مفعم بالحب والإعجاب بزوجتي العزيزة الإمبراطورة مارى لويز، وأوصيها خيرا بابننا الوحيد، وأتوسل إليها أن تحميه من جو الدسائس والمؤامرات التي يشاء القدر أن تحاط حوله منزل طفولته البريئة.

٣- أوصي ابني أن يذكر دائما له ولد فرنسيا فيجب أن يعيش لفرنسا ويمت في سبيلها وليذكر دائما مبدئي الذي عملت به وهو: "كل شيء لفرنسا وللشعب الفرنسي".

ثم اوصب بإعانات ومعاشات تعطى لجميع أصدقائه القدماء الذين لا يزالون على قيد الحياة، وكذلك أرامل وأطفال ضباطه القدماء الذين بذلوا دماءهم في سبيله.

ثم كتب لابنه وصية طويلة أوصاه فيها أن لا يجعل نصب عينيه الانتقام لأبيه، بل العكس نصحه بان يتعظ بمصيره، وان لا يمضى في طريق الحرب والفتوحات متشبها به. بل يعيش للسلام وللسلام وحده، فان القرن الواحد لا يحتمل حربين، وان أرض فرنسا مملوءة بالخيرات، فعليه أن يستغلها لمصلحة شعبه النبيل. ثم كتب يقول:

"لابد وان يتولد في كل مكان شعور بالعطف على نظر للحالة البائسة التي صرت إليها، وهذا العطف هو خير ميراث أتركه لابني إذ سينعكس عليه

وسيكون عونا له في مستقبله، ويقيني أن انجلترا ستساعد على رجوع ابني إلى فرنسا لتمحو بذلك الأثر الذي تركته في دول العالم أجمع، نتيجة المعاملة التي ألاقيها وأقاسى من ويلاتها في منفاي. وأنصح ابني إذا أراد أن يعيش في سلام ووئام مع انجلترا بان يراعى قبل كل شيء مصالحها التجارية. والسبيل الوحيد الذي عليه أن يسلكه هو أن يتقاسم معها تجارة العالم، ويدخلي معها في صلح دائم.

"إن البوربون لن يبقوا في الحكم طويلا بعد موتي، ولابد أن تسنح الفرصة لابني للعودة إلى عرش أبيه، ولكن إياه أن يعتمد على قوى أجنبية للوصول إلى هذا العرش.

"أوصيه خيرا بعائلته. أن أمي العجوز الطيبة القلب شديدة المحافظة على التقاليد وأخوى جوزيف وأوجين في وسعهما أن يسديا إليه النصح والإرشاد.

"وإذا قدر له البقاء بالمنفي، فعليه أن يتزوج بإحدى بنات أعمامه أو عماته. أما إذا رجع إلى العرض، فعليه أن يتزوج بأميرة روسية، فان الارتباط بروسيا لمما يزيد في نفوذ فرنسا في الخارج".

وختم وصيته بقوله:

"أوصي ابني بان يكثر من قراءة تاريخ الأمم والحروب والفتوحات، فالتاريخ وعظاته ودروسه اكبر فلسفة يجب أن يقتدي بها ملك. ولكن ما لم يكن في قرارة نفسه متمتعا بنصيب كبير من حب الخير والرغبة عن الشرور والآثام، فان كل فلسفات العالم والتاريخ لن تجدي قراءتها شيئا. ولكني أرجو من كل قلبي، أن يهيئه الله لمستقبله الذي لا يزال في عالم الغيب".

٢١ ابريل: طلب الإمبراطور أن يحضر له الأب فيجنا لي وقال له:

"إنني اطلب منك أيها الأب أن تقوم بالمراسيم الدينية عقب موتى وان تصلي على روحي بالكنيسة في حضور جمهور المصلين. وأتوسل إليك أن تضع الصليب على قلبي وان لا تقف صلواتك حتى أواري التراب".

٢٥ ابريل: نام الإمبراطور في هدوء معظم الليل وكان الكونت مونتولون جالسا بجوار سرير يراقبه وفي الساعة الرابعة صباحا استيقظ فجأة، وقال وهو في شبه ذهول:

"لقد رأيت الحبيبة جوزفين الآن، وقد رفضت أن تضمني إلى صدرها إذا اختفت في اللحظة التي كنت على وشك تقبيلها فيها .. إنها لم تتغير كثيرا .. ولا تزال عيناها مملوءتين بالإخلاص والمحبة. لقد قالت لي إننا سنتقابل في القريب العاجل. وأننا لن نفترق بعد ذلك".

ثم غلب عليه النعاس ونام ثانية. وفي الصباح أملى على الكونت نص الخطاب الذي يبلغ به الحاكم خبر موته وهذا نصه:

"جناب الحاكم. لفظ الإمبراطور النفس الأخير في يوم ... الساعة ... بعد مرض طويل قاس، وان لي عظيم الشرف أن أبلغكم أن الإمبراطور أوصاني أن اتصل بكم مباشرة، للتحدث في أمر نقل جثمانه إلى أرض الوطن، وكذلك إرجاع رفاقه إلى وطنهم الذي ابتعدوا عنه طويلا. واني لا زلت خادمكم المطيع.

الإمضاء

الكونت مونتولون

٢٨ ابريل: بلغ الضعف بالإمبراطور مبلغا عظيما واخذ يتحدث عن موته بهدوء عجيب قائلا:

"أوصيكم أن تشرحوا جثتي بعد موتي، ولكن عدوني أن لا يمسها طبيب انجليزي. ولكن إذا كانت الحاجة ماسة لمساعدة أحدهم، فان الدكتور أرنوت هو الوحيد الذي اسمح له بذلك، فإذا ما فتحتم صدري فانتزعوا قلبي وضعوه في زجاجة بها كحول "سبرتو" وأرسلوها إلى بارما حيث تقطن مارة لويز وأخبروها إنني أحببتها وبقيت على عهدها طول حياتي.

"وأرجو منك أن توجهوا عناية خاصة بمعدتي، وتكتبوا عما تجدونه فيها تقريرا وافيا، وترسلوه لابني العزيز فان هذا القيء المستعصي يثير في الشكوك. أن معدتي هي أصل البلاء. لقد مات والدي بسرطان المعدة، وإنني أتوجس إنني مصاب بنفس المرض. ولقد انقلب الشك عندي يقينا عندما صار القيء مستمرا. فلا تنسوا أن تخبروا ابني بكل مشاهدتكم عن سبب موتي، حتى تساعدوه على تجنب هذا الداء الوراثي، وصفوا له الدواء اللازم لذلك، فإذا ما عدتم إلى روما، فعليكم بزيارة والدتي العزيزة. فإذا سألتكم عني، فخبروها عن كل شيء ... عن معيشتي في هذه الجزيرة النائية ... عن مرضي ... وعن موتي. فعسي أن تجد في هذه التفاصيل عزاء وسلوى ... ".

وارتمى الإمبراطور على سريره وهو منهوك القوى، ثم راح في سبات عميق واخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة.

٢ مايو: اشتدت حالة الإمبراطور وارتفعت حرارته واخذ يهذي مستعرضا تاريخ حياته. فتارة ينادي فرنسا وأخرى ابنه، وكان يبدو كأنه يتحدث مع رفاقه وكبار قواده الذين عرفهم في أوج عظمته ومجده، وسمع وهو يقول "ستا ينجل ... ديزي ... ماسينا ... النصر القريب ... فهيا اهجموا وشددوا الضغط على العدو ... ".

وعقب ذلك حاول القفز من فراشه، فخانته قدماه وسقط على الأرض فاقد الوعي. ويظهر أن تهيج الإمبراطور نفخ فيه قوة فوق العادة فهجم على مونتولون في هذيانه وألقاه على الأرض وشدد عليه الخناق حتى كاد يزهقه لولا أن ارشمبولت كان ف٦ي الغرفة المجاورة فأسرع عند سماع الجلبة وساعد مونتولون على إرجاع المريض إلى فراشه. وبعد لحظة أشار إليهم بيده طالبا جرعة ماء فقدموا له أسفنجه مبللة لأنه لم يعد قادرا على البلع. هذا الذي دوخ الأمصار!!

وفي الساعة التاسعة صباحا، هبطت الحرارة، وعاد إليه وعيه فنادي طبيبه وقال: "يجب أن تتذكر جيدا كل ما أوصيتك به، فلا تهمل القيام بفحص معدتي بدقة بعد موتي، لأني أريد أن ينتفع ابني بتجاربكم، وان نتعاون جميعا على إنقاذه من الوقوع في براثن هذا الداء اللعين. وأوصيك أن تحاول الاتصال به وترشده إلى ما يجب عليه عمله، لكي يقي نفسه من هذا المرض. وهذا أخر مطلب أسالك القيام به".

وعند الظهر عاد المرض إلى شدته، ونظر الإمبراطور إلى طبيبه قائلا وهو في رابطة جأش: "إن حالتي سيئة جدا وها هي النهاية تقترب". ثم فقد

وعيه ثانية واستغرق في غيبوبة طويلة، كان يفيق منها أحيانا ليوصي رفاقه ببعض أهل الجزيرة الذين يعطف عليهم بصفة خاصة، والواقع أن نابليون كان معبود سكان الجزيرة جميعا من أكبرهم إلى أصغرهم مقاما وسنا، وكان سيلهم لا ينقطع، وهم يترددون على المنزل متلهفين على أخبار المريض العظيم. وكان هذا لا يملك نفسه من البكاء لرؤية مظاهر الإخلاص تبدو في كل حركة من حركاتهم.

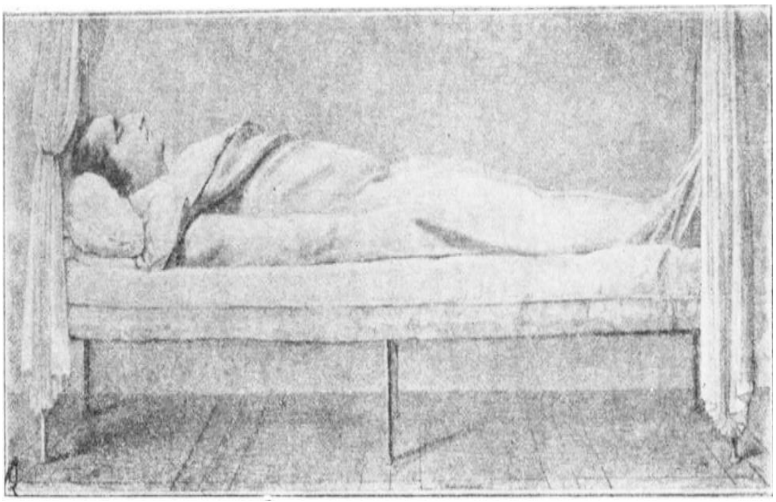
٣ مايو: انتعش الإمبراطور قليلا في الساعة الثانية بعد الظهر، واخذ يتحدث في ضعف مع الذين حوله قائلا: "ها قد بدت الساعة ... ساعة موتي وساعة رجوعكم إلى فرنسا. لقد شاطرتموني الأم النفي، وأمل أن تخلصوا لذكراي كما أخلصتم لي في حياتي. لقد اضطرتني الظروف أن أؤجل كثيرا من ضروب الإصلاح التي كنت انوي أن أغدقها على فرنسا والشعب الفرنسي، ولكن فرنسا رغم ذلك لا تنقم على، بل هي لازالت تذكرني بالعطف وتقدس اسمي وذكراي، فكونوا مثلها مخلصين للمبادئ التي كافحنا سويا من اجلها".

ثم أرسل في طلب الأب فيجنا لي، وطلب أن يترك وإياه وحدهما. فخرج جميع من بالغرفة إلا الأب وتلقى الإمبراطور في سكون ووحدة طقوسه الدينية الأخيرة وعقب انتهائها دخل الكونت مونتولون الغرفة ثانية، فوجد علامات الاطمئنان والهدوء تبدو على وجه نابليون، وبعد حديث قصير نام نوما هادئا، وعندما استيقظ في الصباح، نادي خادمه وقال له:

"افتح الشباك يا مارشان لكي استنشق الهواء العليل الذي أرسله لنا الله".

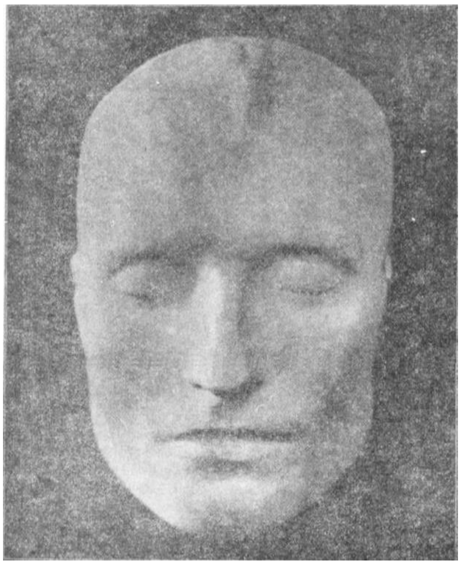
٥ مايو: سكان ليل ٤ مايو مظلما يقبض النفوس كثير الأعاصير غزير الأمطار فإختلعت الرياح كل الأشجار التي تعهدها الإمبراطور بعنايته، فلم تبق منها واحدة بل ألقتها على الأرض، وكأنها تخز سجدا لرهبة الليل وحزن الموقف. وكان المريض العظيم فاقد الوعي لا يحس بما يجري حوله، يتقلب في فراشه ويتنهد تنهدا عميقا بين أن وآخر. وفي أثناء ذلك سمح لأطفال القرية أن يمروا أمام هذا الرجل الذي طالما حباهم بعطفه وكانوا لم يحظوا برؤيته منذ شهر فهالهم ما رأوه من تغير شكله وملامحه التي لم يعهدوا فيها إلا مظاهر الحب والحنان، وبعد تردد قصير هجموا نحو فراش المريض واخذوا يقبلون يديه مبللين إياها بدموعهم البريئة الغزيرة. وكان المنظر مؤثرا فلم يتمالك جميع الواقفين من البكاء كالأطفال، وأغمي على واحد منهم وهو ابن برتران الذي سمى نابليون تيمنا بالإمبراطور. وفي أثناء هذه المناحة، دخل الغرفة احد الخدم المخلصين وكان قد لازم الفراش مدة ثمانية وأربعين يوما، وكان شاحب اللون مرتعش اليدين من تأثير الحمى، وكان يهذي ويبكي، وهو يتقدم في ضعف نحو سرير سيده، حتى إذا ما وصل إليه جلس بجانبه واخذ يتمتم باستمرار: أنا فداؤه أنا فداؤه.

وازدادت الحالة سوءا أثناء الليل وكان الإمبراطور يهذي وينادي "فرنسا، الجيش جوزفين ... " وسمع وهو يصيح عليها مرة ثانية في الساعة السادسة صباحا. واستمر في غيبوبته العميقة حتى الساعة السادسة مساء. وكان طول هذه المدة نائما على ظهره يتنفس بصعوبة وقد تدلت يده اليمنى خارج فراشه. أما وجهه وعيناه،



على فراش الموت

فقد تجلي فيهما هدوء واطمئنان للمصير المحتوم. وعندما أذنت الشمس بالمغيب وأخذت في الاختفاء وراء الأفق، صعدت معها روح نابليون إلى خالقها وكانت أخر كلمات قالها: "جزيرة البا ... نابليون ... الجيش، وجوزفين".



قالب لوجه نابليون بعد موته كما أخذه طبيبه انتو ماركي

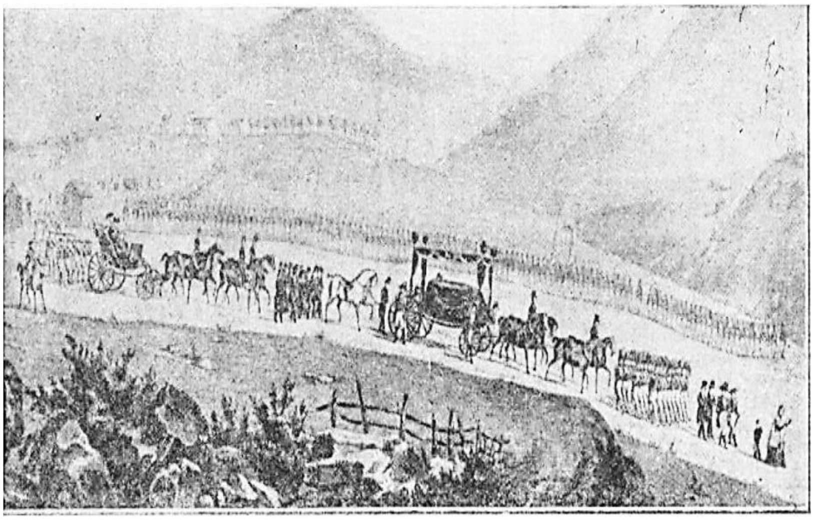
وكان نابليون قد أوصي أن يدفن على ضفاف السين، فإذا لم يكن ذلك ممكنان ففي جزيرة أجا كسيو حيث دفن أجداده .. فإذا رفضت الحكومة الانجليزية هذا أيضا فلتكن رقدته الأخيرة في سانت هيلانه تحت شجرة معينة، طالما استظل بظلها بجوار النهر الصغير الذي كثيرا ما روي عطشه بمياهه البردة العذبة. فذهب أصدقاؤه بعد الوفاة مباشرة إلى حاكم الجزيرة، وتضرعوا إليه أن يتوسط لدى حكومته للسماح بنقل الرفات إلى أرض الوطن. ولكنه صارحهم بان لديه أوامر من حكومته تقضي بدفن (الجنرال بونابرت) في جزيرة سانت هيلانه، وانه لا مانع عنده أن يدفن (الجنرال) في أي بقعة من الجزيرة يفضلونها. كذلك رفض بتاتا أن يسمح بحجز القلب والمعدة بعد إجراء الصفة التشريحية كما أوصي نابليون، بل صمم أن تدفن جميع أجزاء جسم (الجنرال) في ارض الجزيرة.

وبعد تشريح الجثة([٣]) اعد الجثمان للدفن، فألبسها الخادم الخاص للمتوفى الحلة التي اعتاد أن يلبسها في حياته – أي الصديرية والبنطلون الأبيضان وربطة الرقبة السوداء والأحذية الطويلة والقبعة المشهورة – ونشر على ساقيه العباءة التي لبسها في موقعة مارنجو ووضع الصليب الفضي على صدره، بينما وقف الأب فيجنا لي عند رأسه يتلو صلواته.

([٣]) ظهر من تشريح الجثة أن نابليون كان مصابا بالسل الرئوي وبقرحة سرطانية في المعدة. أما التهاب الكبد الذي عولج لأجله فكان نتيجة مناخ الجزيرة الحار. وقد طغت هذه الفكرة على حقيقة مرضه فأكثر الأطباء من إعطائه المسهلات والمقيئات والمعرقات والحقن الشرجية والحمامات الملحية فضاعفوا من آلامه وجعلوا من جسمه حطاما باليا حتى انه كان يصيح في أطبائه مستغيثا: "دعوني أموت من الداء فهذا خير لي من أن أموت من الدواء. خلوا أدويتكم جانبا فاني لا أريد أن أصاب بعلتين: مرضي والمرض الذي تعطونني إياه".

وسرعان ما انتشر خبر وفاته في أنحاء الجزيرة، فتدفقت الجماهير طوال يوم ٦، ٧ مايو على المنزل مارين أمام جثمانه مودعين إياه الوداع الأخير، وقد حسروا رؤوسهم المنكسة في خشوع وحزن وحتى حاكم الجزيرة (السير هدسون لو) لم يتمالك أن يقول في حزن: "لقد كان ألد أعداء بريطانيا وعدوي أنا أيضا، ولكني أسامحه".

وصحا الجو في صباح الثامن من شهر مايو، وسطعت الشمس واختفت السحب وهب نسيم منعش عليل على أنحاء الجزيرة، وازدحمت الطرقات بأهالي الجزيرة ليودعوا أسيرهم المحبوب الوادع الأخير. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف حمل الجنود النعش إلى عربة جرها أربعة جياد. وكان يحيط بالنعش اثنا عشر جنديا، وكانت مهمتهم حمل النعش في الأمكنة التي يحول الوحل والمطر فيها دون متابعة سير العربة. وكان يتبع النعش مباشرة الأصدقاء الأخصاء وخدم المنزل، وكانوا مطاطي الرؤوس في حزن وخشوع وألم، وعقبهم حاكم الجزيرة وقائد الحامية وكبار الضباط على ظهور جيادهم، ومشى في المؤخرة جميع أهالي الجزيرة سيدات ورجالا وأطفالا، واصطفت على جانبي الطريق أفراد الحامية التي خصصتها الحكومة البريطانية لحماية الجزيرة أثناء سجن الإمبراطور وكان عددهم يبلغ ألفين وخمسمائة جندي.



موكب الجنازة في جزيرة سانت هيلانه

... وأخيرا وقف الموكب، وحمل الجنود النعش على أكتافهم وساروا به في طريق ضيق إلى البقعة التي أوصي الفقيد بان يدفن فيها، ووضع النعش على حافة المقبرة، بينما اخذ الأب فيجنا لي يتلو صلواته .. وعند إنزال النعش إلى القبر، أخذت السفن الحربية الراسية في الميناء تطلق مدافعها تكريما للفقيد العظيم، وكانت لم تنقطع عن ذلك طول مدة سير الجنازة من المنزل إلى المقبرة.

ووضع لوح من الحجر بسيط في مظهره على المقبرة، وقد كتبت عليها الكلمات الآتية:

نابليون: ولد في أجاكسيو ١٥ أغسطس ١٧٦٩

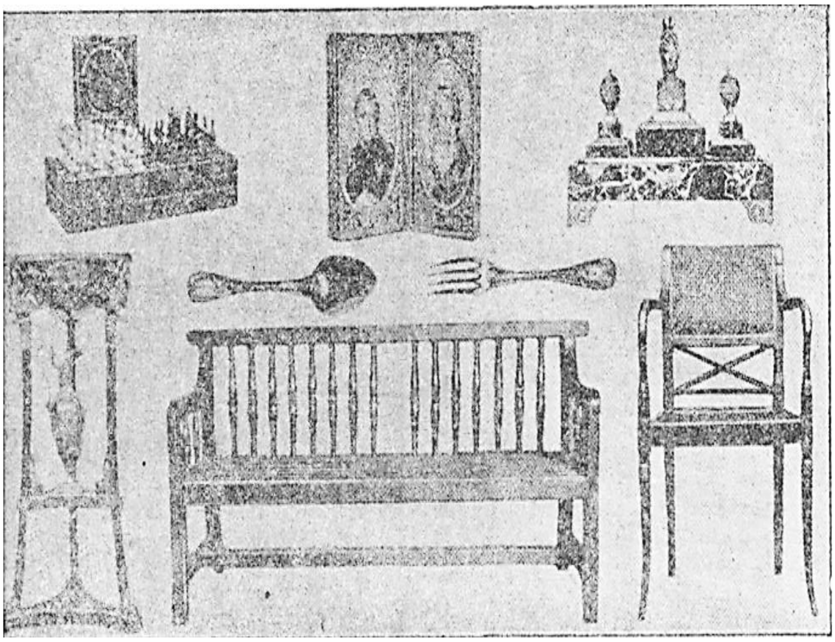
وتوفي بسانت هيلانه ٥ مايو ١٨٢١

وفي يوم ٢٧ مايو رحلت الحاشية التي رافقته في المنفى إلى فرنسا، وقبيل سفرهم ذهبوا إلى المقبرة وغطوها بالزهور والرياحين، وبللوها بدموعهم التي لم يستطيعوا حبسها.

ولكن واحدا منهم – وهو السرجنت هوبارت – رفض بتاتا أن يترك قبر سيده. فبقى بجانبه يزوره يوميا مدة تسعة عشر عاما، حتى استجاب العالم صوت فرنسا وسمح بنقل رفات الإمبراطور إلى ضفاف السين تحت قبة الأنفاليد وعندها رافق هذا الخادم المخلص رفات سيده حزين القلب مكسور الفؤاد ولكن راض الضمير.



قبر نابليون في سانت هيلانه



بعض الأدوات التي كان يستعملها نابليون في الجزيرة

خاتمة المطاف

أوصي الإمبراطور بان يدفن على ضفاف السين بين أبناء الشعب الفرنسي الذي أحبه من كل قلبه. وكان هذا الأمل يبدو مستحيلا عند كتابته، ولكن سرعات ما مرت الأعوام وتغيرت الظروف فما جاء شهري يوليو من عام ١٨٣٠ حتى قامت فرنسا قومه رجل واحد وطردت آل البوربون من عرشها ووضعت التاج على مفرق لويس فيليب دوق أورلينز.

وفي ٢٩ يوليو ١٨٣٢ توفى ابن نابليون الوحيد وكان عمره إذ ذاك واحدا وعشرين عاما فزال بموته كل اثر مباشر لذرية بونابرت. وأخذت فرنسا تتحرر تدريجيا من رقابة الحلفاء وسيطرتهم. فانتهز الفرنسيون فرصة الاحتفال بذكرى وفاة بونابرت في اليوم الخامس من مايو عام ١٨٤٠ وقدموا التماسا للحكومة البريطانية يطالبون فيه برفات الإمبراطور. وكان اللورد بالمرستون على رأس الحكومة البريطانية التي وافقت دون تردد في خطاب ودي تمنت فيه أن يكون ذلك بداية عهد جديد بين الأمتين وأملت أن تدفن أحقاد الماضي في القبر المعد لتسلم رفات الإمبراطور.

وفي اليوم الثاني عشر من شهر مايو أعلن رئيس الوزارة الفرنسية في مجلس النواب الفرنسي أن الملك قد اصدر أمره إلى الأمير جوانفيل بالسفر إلى جزيرة سانت هيلانه لاستلام رفات الإمبراطور. وأبحر الأمير ومرافقوه على ظهر سفينتين حربيتين وصحبه في الرحلة الجنرال جور جود والجنرال

برتران والكونت لاس كأساس وهم الذين كانوا في معية الإمبراطور وهو في المنفى. وقد اخذوا معهم تابوتا فاخرا من الأبنوس المتين وكان كبير الحجم لدرجة كافية ليحوى التابوت الذي دفن به الإمبراطور حتى لا تزعج رفاته بنقلها من تابوت إلى أخر. وكتبت على التابوت كلمة واحدة، نابليون، بحروف من الذهب.

ووصلت السفينتان إلى الجزيرة في يوم ٨ أكتوبر وقوبلتا بترحيب كبير من مدفعية الساحل وكذلك من السفن الانجليزية الراسية في الميناء. وكان يوم ١٥ أكتوبر يوافق الذكري الخامسة والعشرين لنزول الإمبراطور إلى سجنه في سانت هيلانه، فحدد ذلك اليوم بالذات لفتح قبره واستخراج رفاته. وفي منتصف الليل تمامًا اجتمع حول القبر جماعة من المهندسين الانجليز وشرعوا في فتح القبر تحت إشراف حاكم الجزيرة وبحضور أعضاء البعثة الفرنسية. وبعد تسع ساعات من العمل الشاق المستمر أزيلت الأتربة والحجارة الصلبة من فوق اللحد ولما رفعت البلاطة الصلبة من فوق التابوت أقيمت الصلاة.

ورفع التابوت في سكون وإجلال إلى خيمة قريبة أعدت من قبل. ولما فتحت التوابيت الثلاثة التي احتوت الرفات – وكان أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من القصدير – بدت الجثة وقد غطيت بطبقة من الحرير الأطلسي. ولما رفع هذا الغطاء كانت دهشة الموجودين عظيمة لان تقاطيع وجه الإمبراطور لم تتغير رغم مرور السنوات الطوال حتى أن معرفته لم تتعذر على الذين رأوه في حياته. وقد دل هذا على أن

الاحتياطات التي اتخذت لحماية الجثة من الهواء والرطوبة والحرارة، أفلحت إلى حد كبير. أما الملابس فقد أصابها بعض العطب. وبد الإمبراطور وكأنه نائم نوما هادئا. ولم يستغرق الاستعراف على الجثة أكثر من دقيقتين أقفلت بعدها التوابيت الثلاثة ووضع الجميع في التابوت الأبنوسي الفاخر الذي أحضرته البعثة معها.



عندما فتح التابوت قبل نقل الرفات إلى فرنسا التي أحبها من كل قلبه وكانت السماء تمطر وترعد أبان هذه العملية. وقصفت مدافع الساحل تكريما لذكري الإمبراطور ومشي جميع أهالي الجزيرة وراء النعش أثناء نقله من القبر إلى الميناء. وكان النعش موضوعا على عربة تجرها أربعة خيول ويسير على كل من جانبيها ثمانية من ضباط حامية الجزيرة. وسار في الموكب كل الموظفين الرسميين من مدنيين وعسكريين. وطلب حاكم الجزيرة

– وهو الذي خلف سير هدسون لو – رسميا من جميع رجال لجزيرة أن يرافقوا الجثة في رحلتها إلى الميناء. ورافقها أيضا جميع جنود الحامية البريطانية المرابطة بالجزيرة، ورفعت الأعلام السوداء على جميع منازل جيمس تون ونكست الأعلام على الدور الرسمية والسفن الحربية.

وعلى رصيف الميناء وقف الأمير جوانفيل ومن حوله الضباط الفرنسيون في ملابسهم السوداء وعندما اقتربت العربة نكسوا رؤوسهم الحاسرة. ووقفت العربة على بعد خطوات منهم، وتقدم حاكم الجزيرة وسلمهم جثة الإمبراطور باسم الحكومة البريطانية. ونقل التابوت في زورق صغير إلى السفينة بينما كانت المدافع تقصف والعلم الفرنسي يرفرف فوقه. وهناك وضع في كنيسة صغيرة كانت قد أعدت من قبل لهذا الغرض. وأضيئت الشموع حوله ووقف لحراسته ستون جنديا ورفرف على النعش علم نفيس اشتركت في صنعه السيدات الانجليزيات اللاتي كن يقمن بسانت هيلانه.

وأبحرت السفينة في اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر أي بعد مضي خمسة وعشرين عاما وثلاثة أيام من تاريخ وصول بونابرت إلى الجزيرة ليمضي فيها بقية عمره. وفي اليوم الثاني من شهر ديسمبر وصلت السفينة ميناء شربورج وعندها أرسلت المدافع من أفواهها إحدى وعشرين طلقة. ثم نقل التابوت إلى ظهر الباخرة تورما ندي حيث وضع على منصة عالية وأحيط بالشموع المضيئة من كل جانب ووضع التاج الإمبراطوري على وسادة فاخرة عند رأس التابوت ووقف الأمير جوانفيل عند الطرف الأخر.

وكان وضع التابوت بحيث يسمح للواقفين على ضفتي النهر برؤيته بجلاء ووضوح.

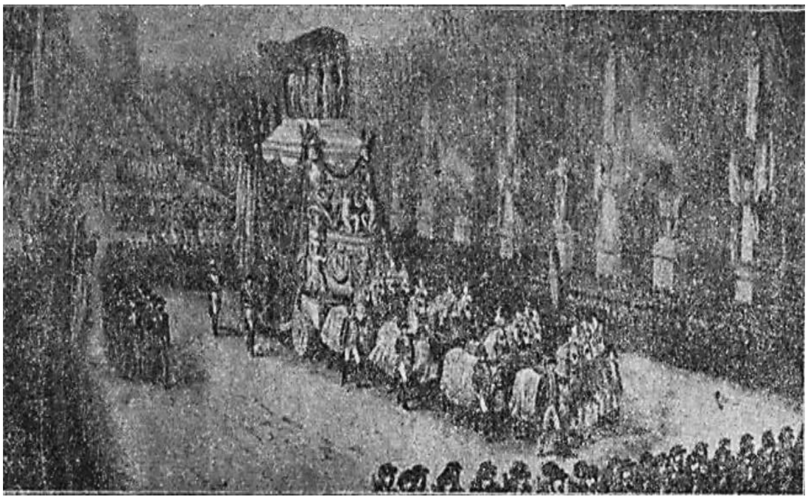
وهكذا سارت السفينة عبر نهر السين بحملها الثمين الذي خفق له قلب فرنسا وحيته الجماهير بحماس لا يوصف وقصفت المدافع من الجانبين طول الطريق ودقت الكنائس أجراسها الجنائزية. وكانت ضفتا نهر السين من الهافر إلى باريس مكتظين بالجموع التي لا حصر لها ولم ينقطع سيل الهتافات طول الطريق، حتى وصل الموكب النهري إلى قرية كوربيفوا وهي تبعد مسافة أربعة أميال من باريس. وكان قد أقيم هناك تمثال كبير للإمبراطورة جوزفين يمثلها وهي تستقبل زوجها العائد إلى وطنه فاتجهت كل القلوب إليها، ولم يفكر احد في مارى لويز التي كانت لا تزال على قيد الحياة تعيش في عزلة تامة في بارما.

وفي صباح اليوم التالي سطعت الشمس في إشراق مبهج فصاحت الجماهير المتراصة "هذه شمس أوسترليتز" وابتدأ الموكب سيره تحف به كل مظاهر العظمة والأبهة. وكان شارع الشانزلزيه وقوس النصر مزينين أبدع زينة وسارت العربة بين الأعلام والجماهير الحاشدة يجرها ستة عشر حصان اسود ويحيك بها الستمائة جندي الذين رافقوا الجثة أثناء رحلتها من سانت هيلانه.

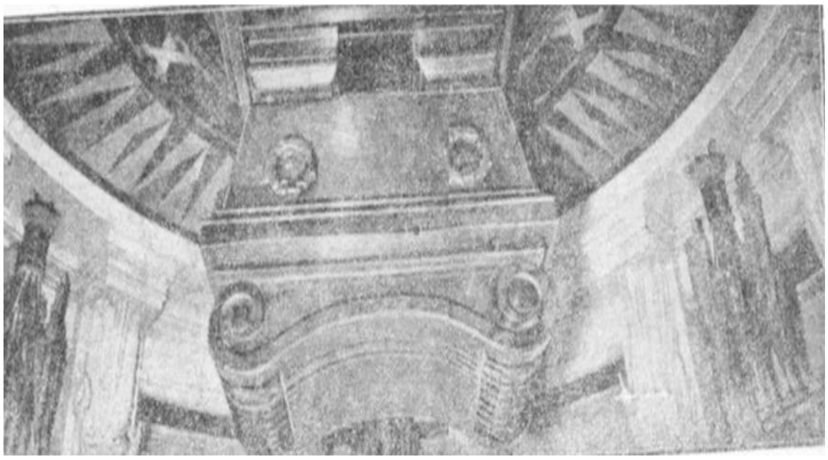
وعندما وصل الموكب إلى الأنفاليد كان في انتظاره الملك لويس فيليب يحيط به كبار ضباطه. وهناك حمل النعش اثنان وثلاثون من حرس

نابليون القدماء وساروا به يتقدمهم الأمير جوانفيل الذي تقدم إلى الملك قائلا: "مولاي إنني أقدم إليكم رفات الإمبراطور نابليون".

فأجاب الملك: "وأنا أتسلمها منك باسم فرنسا".



موكب الجنازة في شارع الشانزلزيه



خاتمة المطاف تحت قبة الأنفاليد

الفهرس